ملحمة
سليمان

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: ملحمة سليمان
التأليف: فاطمة بلحاج
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 200 صفحة
عدد الملازم: 12.5 ملازم
مقاس الكتاب: 14*20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/3203
الترقيم الدولي: 978-977-6697-928

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

حكاوي للإنتاج الفني

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

رواية

ملحمة سليمان

تأليف

فاطمة بلحاج

عطاوي
للإنتاج الفني

إهداء

إلى الطيبين، الصادقين، المخلصين...
إليكم جميعًا أهدي هذا العمل.

١

فتحت عيني، نظرت في كل اتجاه، الظلام في كل مكان، الهواء شبه منعدم، بالكاد أستطيع التنفس، قمت واقفًا، أحاول السير، ارتطم رأسي بجدار من التراب، لم أعرف أين أنا ولمَ أنا هنا في هذا المكان. جلست على الأرض، أمسكت رأسي بكلتا يديّ، أحاول تذكر ما حدث لي، وسبب وجودي في هذا المكان، أغمضت عينيَّ، حاولت ثم حاولت السفر عبر ذاكرتي إلى تلك اللحظة. استلقيت على ظهري، فتحت عينيّ أحدق في الفراغ المظلم...

تذكرت تلك اللحظة - في خريف سنة ١٩٥٨ - وآه من تلك اللحظة، لا يمكنني نسيانها بسهولة، لحظة النهاية، البندقية في يدي، والعدو أمامي، والخوف يصارعني، أما القائد فخلفي يزمجر بأعلى صوته:

- هيا يا سليمان.. أطلق النار.. أطلق النار وإلا سنموت..

ارتجفت من الخوف الذي تملكني، قدماي لا تثبتان على الأرض، تحدثان زلزالاً بالمكان، الغبار حولي يتطاير، ها هو صديقي أمامي، أراه واقفًا يوجه بندقيته نحوي، يضغط على الزناد، وأنا واقف كتمثال، يداي لا تقويان على حمل البندقية، ماذا أفعل يا قلبي؟ هل أطلق النار عليه وأقتله وأنسى عهدنا

الـذي تعاهدنـا عليـه بـأن لا نسـمح لأحـد أن يـسرق منـا أخوتنـا وصداقتنـا؟

لا أستطيع أن أفعلها... لا أستطيع...

يكرر القائد أوامره بأعلى صوته:

-سليمان أطلق.. سليمان أطلق وإلا سنموت..

أحـاول أن أثبـت مـكاني، أرفـع البندقيـة نحـو صديقـي، تلتقـي عينـاي بعينيـه، يقـول قلبـي كلامًـا يصـل قلبـه في صمـت، حكايـات الطفولـة التـي تحـاول أن تزهـر مـن جديـد بـين ضلوعنـا، مـرت حمامـة مـن هنـاك تطـير فوقنـا، رفعنـا رأسـينا ونظرنـا إلى السـماء، شـيئًا فشـيئًا غابـت عـن ناظرينـا. ثـم عدنـا نحـن الاثنـين نتطلـع إلى بعضنـا، الجنـدي الجريـح عـلى الأرض يـصرخ مـن الألم، ينـازع، متمتـماً بأعـز كلماتـه، يرفـع سـبابته للشـهادة. لا يطاوعنـي قلبـي عـلى إطـلاق الرصـاص عـلى صديقـي...

-أطلق يا سليمان.. افعلها وإلا سنموت..

لا أبـالي بصـوت القائـد، أتجاهلـه للحظـة، أودّ لـو يتوقـف قليـلاً عـن إصـدار الأوامـر. يأخـذني الحنـين إلى قريتنـا، حيـث الـبراءة تنتـصر، أركـض في الـروابي، أرعـى الأغنـام مـع صديقـي، نذهـب معًـا إلى مدرسـة القريـة، وإلى الجامـع لحفـظ القـرآن. نرسـم مسـتقبلنا، كل واحـد منـا يجهـر بحلمـه ويرسـم مسـاره عـلى تربـة القريـة.

كنت صغيرًا، لا أعرف معنى الحرب ولا حمل ثقل الأحلام على الأكتاف. كان سيد أحلامي أن أكون بطلاً يذكر التاريخ اسمي. كلما سألني أحد عما سأكون حين أكبر، أردد ذات الكلمات: سأكون جنديًا وبطلاً يذكر التاريخ اسمي. بعدها حفرت تلك الأمنية داخلي، أرددها وحدي كلما استلقيت للنوم. أبتسم وأنا أتخيل أنني عائد إلى قريتنا، حاملاً درعًا من الفضة، أهديت لي أنا المحارب الشجاع الذي حرر الوطن من المستعمر.

ومثل كل طفل صغير في القرى، يرعى غنم عائلته، كان صديقي مثلي. كنا نركض بين التلال، نلاحق الأغنام، ونعيدها إلى حقولنا، فأرضنا تجاور أرض عائلته، كنا نتشارك في كل شيء، رعي الغنم، قطف ثمار التين، والزيتون، واللوز... كانت تجمعنا رابطة الأخوة وصداقة الأرواح. كنت أكبر إخوتي، وكان هو أيضًا أكبر إخوته. ذات يوم، في فصل الصيف، وقعت في حفرة عميقة، ولم يكن هناك أحد سوانا في ذلك المكان - كان والدانا وأعمامنا في الجبهة - تعاهدنا بأن نظل سويًّا ولن نفترق، لن نسمح لأي شيء أن يبعدنا عن بعضنا. بقيت في الحفرة يومًا كاملاً. كان يرمي لي بثمار التين، ويصب من جرة الماء من أعلى الحفرة على فمي لأشرب. أنهكني الحرّ وليس هناك من ينجدني. انتظرنا أن يأتي أحد من سكان قريتنا للبحث عنا

فيخرجني من تلك الحفرة، مرّ الوقت ولم يأت أحد، وظل هناك ولم يبتعد. ثم حين حل الظلام نام بجانب الأغنام قرب الحفرة، ونمتُ في تلك الحفرة وحيدًا، كل مرّة أناديه: عمر.. أين أنت يا عمر؟ كان ينهض من نومه ويطل عليَّ قائلاً: أنا هنا يا صديقي، لا تخف، لن أذهب إلى أيّ مكان من دونك. كنت أرجوه ألّا يتركني؛ فأنا أخشى العقارب. وفي الصيف يكثر ظهورها في قريتنا. كنت كلما أحسست بأي شيء ينغزني، تخيلت أن إحداها تلدغني، فأقف منتصبًا أصرخ وأنا أقفز في حركة دائرية داخل الحفرة: عقرب... عقرب يا عمر... ثم أضرب بقدمي الأرض دون توقف، وأنفض ملابسي، ثم أبحث في الحفرة، لكن الظلام دامس ولا أرى شيئاً، ويقول وهو يحاول طمأنتي: سليمان، لا يوجد هنا عقارب، ولم أسمع من أحد في قريتنا يقول إنه رأى عقارب هنا... فأصدقه، وأستلقي على الأرض، أنام وأنا أتخيل أمي قادمة لمساعدتي، تمد لي حبلاً لتخرجني من الحفرة. وحين أصل إلى الأعلى تضمني وتقبلني، ثم تنفض عني الغبار. تسقيني وتطعمني بيدها.

وفي الصباح جاءت أمي تبحث عني هي وجدتي وأخواتي وأم عمر، وسحبوني من الحفرة.

لا تطلبوا مني أن أنسى وعدنا، أن أنسى أن قلبي قد اتحد مع قلب عمر، وأصبحنا رفيقين لمدى العمر، واقتسمنا كل قطعة

خبز كانت لدى أحدنا، وكل فاكهة قطعت إلى قسمين وكل واحد أخذ النصف الآخر، وكل أناشيد الثورة ضد الاستعمار رددناها معًا. أنشدناها ونحن مستلقيان على الأرض نحدق بالسماء الزرقاء، وأمنيتنا أن نكبر ونحرر الوطن، وأن نكون أبطالاً مثل رجال قريتنا، جدي وأبي وأعمامي... وكل رجل كان في قريتنا، كلهم رحلوا حاملين البنادق فوق أكتافهم، هناك وقفوا في صف واحد ضد المستعمر، لم يتراجعوا إلى الخلف ولا مرة، لم يستسلموا رغم أن السلاح والعتاد كان قليلاً، والمستعمر يملك من الرجال والسلاح ما لا يُعدّ. وعندما ارتفعت الزغاريد في قريتنا، كنا في المرعى مع أغنامنا، هرعنا إلى بيوتنا نسأل عن سر الزغاريد والأناشيد التي ارتفعت في سماء قريتنا، فقيل لنا: لقد انتصرنا، ورحل المحتل، ترك سلاحه وجرحاه وموتاه في ساحة المعركة، وفرّ هاربًا!

كنت دائماً حين كان أبي يتحدث عن الحرب، وعن بطولات رجال قريتنا، أرغب في الطيران، أحلق بعيدًا إلى ساحة المعركة لأرى بنفسي الجنود وهم يحاربون، أبي وجدي وأعمامي وكل رجال قريتنا شاركوا في المعارك الخالدة، منهم من استشهد، ومنهم من عاد منتصرًا بالغنائم. إحدى تلك المعارك كان أبي يحكيها كلما جاء لزيارتنا، يقول: «سينهزمون ويرحلون. وقد انهزموا، وليس لهم مكان في هذه الأرض المباركة». في تلك

المعركة سقط جنود المستعمر واحدًا تلو آخر، وانقلب المحتل منهزمًا، يجر ذيول الخيبة والهزيمة، وحمل جنودنا الغنائم، وأسلحة المستعمرين أصبحت في أيدي أبطالنا البواسل.

في ذلك الوقت لم أكن قد ولدت بعدُ، قالت لي أمي إنها كانت قد تزوجت أبي حديثًا، ولما انتصر جنودنا الأبطال، احتفلت النساء في قريتنا، وعاد بعض الرجال، وكان منهم أبي، استُقبل كما يُستقبل الأبطال بالزغاريد، وصينية وضعت فيها بعض الحلوى واللوز وقطع من السكر... حمل أبي قبضات منها، ورفع يديه إلى الأعلى ثم رماها، وتهافت الصغار لالتقاط الحلوى...

وبعدها توالت معارك أخرى، فالمستعمر كان يرفض ترك البلاد، رغم خساراته تلك. وفي اليوم الذي تم الإعلان فيه عن توقف الحرب، والإعلان عن الاستقلال، كان أبي يحكي كيف سطّر رجال منطقتنا النصر على خريطة الوطن، وكنت أنظر في عينيه المتلألئتين بالنصر، وكلّي فخر بأن هذا الرجل أبي...

***

قريب هو صديقي، وقلبه متّحد بقلبي، وبعيد عنّي مثل بعد الشمس عن الأرض، لا أدري كيف أصبحنا غريبين، وكل واحد منا عليه أن يقتل الآخر لينجو بنفسه!

قلبي يقول: «أنا لست مثلك يا صديقي، لن أخون عهدنا في طفولتنا، حين قلت لي: لو أصبح العالم جزءين منفصلين وعلينا أن نختار، فأنا يا صديقي سأختار الجزء الذي اخترته والذي ستكون فيه أنت. قلت لك: ماذا لو كان ذلك الجزء مليئًا بالصراعات؟! قلت لي: ذاك هو اختياري، فأنا لن أختار المكان، ولكني سأختار من يكون معي في ذلك المكان، وما دام ذاك المكان فيه صديقي ورفيق طفولتي، فأنا أختاره من الآن... ها نحن هنا يا صديقي، لا أنت اخترت أن تكون معي، ولا أنا اخترت أن أكون معك، كل واحد منا أصبح له عالمه، كل واحد أصبحت لديه قناعاته. أنا كما تعلم كنت دائماً أحلم بأن أصبح بطلاً يحارب من أجل الوطن، وأنت قلت إنك حين تكبر تريد أن تكون طبيبًا، تعالج الجرحى الذين أصيبوا في ساحة المعركة. لقد تخليت عن حلمك، ولحقت حلمي وحملت البندقية، وخنت عهدنا!».

رفع صديقي صوته قائلاً:

-أنت يا سليمان من خان.

شعرت كأنه فهم ما يدور في خاطري فقلت ردًّا عليه:

- أنا لم أخن صداقتنا، ولم أتخلَّ عن وعدنا أن نظل أصدقاء، ما زلت على ذلك العهد، ولكن وطني الغالي أولًا، ثم بعده صداقتنا!

- وطنك الذي تحارب من أجله هو وطني.. وأنا أحارب من أجله أيضًا...

ساد صمت بيننا، كل واحد يحدّق في الآخر، ويمر الوقت سريعًا، بين أوامر القائد، وكلمات صديقي. يدايَ ترتعشان، أنفاسي تتقطع، قلبي يخفق بسرعة البرق، حاولت أن أتماسك، دعوت الله في سري أن يثبتني، دعوت الله ألّا تصيب تلك الرصاصة صديقي، تراجعت إلى الخلف قليلاً، صحت صيحة وأنا أضغط على الزناد، انطلقت الرصاصة، وقعت في قلب القائد.

«يا له من خطأ! بدل أن تكون الرصاصة في صدر جندي من جنود العدو الذين يحاصروننا، وقعت في صدر القائد». كانت تلك كلمات الممرضة التي رأيتها واقفة بجوار رأسي، حين استفقت من الغيبوبة التي دخلتها إثر إصابة تلقيتها بعد انتصار أبناء منطقتي، ممن ثاروا بعد خروج المستعمر، كانوا يطالبون بتحسين الوضعية المعيشية لسكان المنطقة بعد نهاية الحرب.

نظرت إلى الممرضة، وقلت متسائلاً: ماذا حدث؟ حدقت بي للحظة دون أن تقول شيئًا، ثم غادرت الغرفة. كنت بحاجة لأن يخبرني أحد بما حدث، فأنا لا أذكر ما حصل بعد أن أصيب القائد. حين التفتُ إليه، قال لي الجندي الجريح: «لقد خنتنا...» حين ذاك، تذكرت أنني رأيت صديقي يقف مع مجموعة من الرجال يطلقون النار علينا، وقعت على الأرض، ثم لم أعد أذكر شيئًا.

إني أتألم في صمت، قلبي يئنّ بين ضلوعي، دمي بارد كماء الثلج بين عروقي، أودّ أن أرفع صوتي وأنادي على الممرضة أو أي أحد ليخفف من الألم الذي كنت أشعر به، ولكنَّ صوتي كان عالقًا في حنجرتي، يأبى الخروج، كأنَّ حبالي الصوتية مقطوعة...

الألم الذي يعصرني الآن لا دواء يعالجه أو يوقف استمراره، لم أكن أريد أن أمسك تلك البندقية اللعينة، ولا أن أطلق الرصاص على صديقي الذي يقاتل في الجهة الأخرى. إنها الحرب، إن كنت جنديًا عليك أن تقاتل دون أن تسأل لماذا عليّ أن أقتل؟ ولأجل من أقتل؟ فقط أن تقتل بدم بارد، لا يهم من يكون في الجهة الأخرى، صديقك، أو جارك... فهم أعداؤك في ساحة المعركة، وبعد أن تنتهي الحرب يمكنك أن تتصالح مع الجميع، وأن تعتذر لهم!

عادت الممرضة مع دواء قدمته لي مع كوب ماء، تجرعت الدواء المرّ، مغمض العينين. ثم سألتها عن القائد إن كان ما زال على قيد الحياة، نظرت إليّ في شفقة قائلة: «يقولون لا أمل من نجاته». ثم خرجت من الغرفة. قلت متسائلاً مع نفسي: «هل يكون قد مات وهي تخفي عني ذلك؟ وإن مات سأكون قد انتهيت، ولكن الأمر كان حادثًا، وأنا لم أقصد ذلك، القائد تقدم نحوي، كان يصرخ في وجهي، شدني من ذراعي قائلا:

- أتريد أن نموت... هذه فرصتك الأخيرة... أنهِ الأمر...

ابتعد قليلاً عن يميني، وهو ينظر في عينيّ، بنظرة غاضبة، ثم اقترب مني، همس في أذني بكلمات يذكرني بالوعد الذي قطعته لأمي بأنني سأعود للقرية منتصرًا... تلك الكلمات كانت شحنة كهربائية، جعلتني أضغط على الزناد، دون التركيز على الهدف الذي كنت أوجه نحوه البندقية، فاخترقت تلك الرصاصة اللعينة قلبه. هذا ليس ذنبي، فيدايَ كانتا ترتعشان، والخوف كان مسيطرًا عليّ، ولكن من سيصدقني؟ من سيصدق أنني لست مذنبًا؟!

آه من الحرب وما تفعله بالإنسان، تسرق فرحته، إنسانيته، وآماله، وإن أحببتُ أن أكون بطلاً فإني أكره الحرب! عندما ذهبت إلى ساحة المعركة مع بقية الجنود، كانت الحرب على أبواب النهاية، وبعد أشهر قليلة من وجودي في الجبهة تم إعلان الاستقلال، وعدت إلى القرية دون أن أحقق شيئًا من البطولات التي حققها أجدادي ضد المستعمر.

ولكن بعد أشهر تم استدعائي للعمل في الجيش فالتحقت بالمعسكر، وحين اندلعت الثورة، كنت جنديًا من جنود الوطن، وصديقي كان في الفريق الثاني، أبناء المنطقة الذين أعلنوا الثورة. حين لمحته وهو يطلق النار تجاهنا، خاب أملي فيه، وخاب أملي في نفسي أيضًا، لمَ هو ليس معنا؟! ولمَ أنا لست معهم؟! ولمَ علينا أن نتقاتل في ساحة المعركة؟! تلك الأسئلة كانت تحتاج

إلى جواب، ولكني لم أكن أجد جوابًا مناسبًا لها.

في يوم من أيام الشتاء القارس بعث لي برقية، كتبها على لوح خشبي ثم رمى به نحوي، أمسكته، قرأت تلك السطور، التي سرقت النوم من جفوني، « إليك صديقي سليمان، صديق الطفولة، لقد خاب أملي فيك، أنت الذي تؤمن بالحرية، والعدالة، أصبحت تقاتل أبناء وطنك، أبناء منطقتك، أما علمت أن أجدادنا هم من حاربوا الاستعمار، ودفعوا أرواحهم من أجل الاستقلال؟ ثم بعدها جاء الآخرون ووزعوا الثروات على معارفهم... إذا مُتّ أخبر أمي بأنني مُتّ من أجل الكرامة قبل كل شيء، ومن أجل كل شهيد مات من أجل أن تتحرر الأرض من الغزاة!»

قرأت تلك الكلمات أكثر من مرة، حاولت أن أفهم ما يقصده صديقي، لكن كنت غير قادر على استيعاب شيء مما خطّه قلبه قبل يده، أول مرّة في حياتي لم أفهم كلماته، مَن هؤلاء الذين يقصدهم؟ أنا لا أعرفهم، ولم أقابل واحدًا منهم في أيّ مكان، ولا حتى في قريتنا، مع أن هناك الكثير من أبناء قريتنا خرجوا منها حين كانوا شبابًا وعادوا إلى الوطن ليسكنوا مدنًا وقرى، ولكن ليس لهم علاقة بما يقوله صديقي، ربما هو يهذي...

صديقي يعلم أنني كنت أتمنى منذ طفولتي أن أكون جنديًا، وها أنا قد حققت أمنيتي. ولكن لمَ أنا غير قادر على إطلاق

النـار؟ ألسـت جنديًـا في الفرقة العسـكرية؟ هـل لأن صديقي في تلك الجهـة؟ أم أن هنـاك نزعـة داخـلي تمنعنـي مـن أن أطلـق الرصـاص؟!

***

هـا أنـا الآن في هـذه الحفـرة المظلمـة، وكل مـا أتذكـره عـن الحـرب أننـي شـاركت فيهـا وأنـا لم أكـن أعلـم أن كلا الفريقـين كانـا يحاربـان مـن أجـل ذات القضيـة، قضيـة أننـا جميعًـا نؤمـن بأننـا أكثـر وطنيـة، ويحـق لنـا كل شيء!

في البدايـة لم أمسـك السـلاح قـط، كنـت أوزع المـاء والأكل عـلى الجنـود، وكلـما انهزمنـا كنـت أفـر هاربًـا وأختبـئ خلـف الجنـود، ومـرت الأيـام تلـو الأيـام، إذا انتصرنـا رقصنـا فـوق جثـث أعدائنـا ثـم مضينـا نحتفـل، وبعدهـا بأسـابيع ننهـزم ويرقـص جنـود أعدائنا فـوق جثثنـا ثـم يحتفلـون... وهكـذا إلى اليـوم الـذي انهزمنـا للمـرة الأخـيرة، وقعـت الجثـث فوقـي ثـم غبـت عـن الوعـي، ثـم بعدهـا لم أعـد أتذكـر مـا حصـل...

بعـد أيـام مـن اسـتعادتي وعيـي في المستشـفى، علمـت أننـي الجنـدي الوحيـد الـذي نجـا مـن المعركـة، وبعـد أن تعافيـت أخـذوني إلى السـجن. ظللـت في زنزانـة منفـردة لخمـس سـنوات، كانـوا يرمـون لي بعـض فتـات الطعـام في طبـق حديـدي، وكـوب مـاء مرتـين في اليـوم. وذات يـوم جـاء إليّ رجـل ضخـم برفقـة ضابـط، قيـدوني وأخـذوني دون أن يقولـوا لي شـيئًا.

كنت أسألهم: إلى أين ستأخذونني؟ أخبروني إلى أين؛ فلم يجيبوني، أمسكني الرجل الضخم من رقبتي بقوة، ضغط عليها بكلتا يديه، انقطع نفسي، وكادت رقبتي أن تتفتت بين يديه. فقدت وعيي، وقعت على الأرض، صبّ فوق رأسي كوب ماء، تنفست الصعداء، ثم أدخلني غرفة وطلب مني الجلوس. بقيت هناك فترة من الوقت، ثم دخل مجموعة من الرجال الملثمين، عصبوا عيني، دفعوا بي نحو الأمام، وأنا لا أرى شيئًا، ثم قادوني إلى وجهة لا أعرفها، مشينا لوقت لا أتذكره، انفتح باب، سمعت ضجيجًا، بدا لي كأنه محرك مروحية، قال أحدهم: خذوا هذا معكم...

رموني داخل المروحية، أقلعت، سمعت صوتها وهي ترتفع في السماء، كانت هناك همهمات لم أفهمها ممّن كانوا معي داخل المروحية، بعض الذين كانوا مثلي، يقولون: «سنموت.. إنها النهاية»، وأنا كنت أؤمن أنها لن تكون النهاية، الله سيرسل من سيساعدني، وسيخرجني من هذه المتاهة التي دخلتها وتوغلت بين سراديبها...

بعد ساعة أو أكثر، نزلت المروحية، شعرت باهتزازها وهي تحط فوق الأرض، ثم سكون غريب يوحي بحدوث شيء ما، فتحوا باب المروحية، رموني منها على الأرض رفقة من كانوا داخل المروحية، رفعت يديَّ، أزلت العِصابة عن عيني، نظرت

مـن حـولي، لا شيء غـير القفار وبعـض الأشـجار المتباعدة، سـمعت رجـلاً يقـول: اركضـوا.. اركضـوا.. التفـتُّ خلفـي، كانـت هنـاك مجموعـة مـن المروحيـات تحـوم فوقنـا، ثـم بَـدَأت بإطـلاق النـار...

كنـت أركـض في كل اتجـاه دون هـدف، يمينًـا، ويسـارًا، أحـاول الوصـول إلى أقـرب شـجرة علنـي أختبـئ خلفهـا، نظـرت مـن حـولي، الكثـيرون اختفـوا، وأنـا مثلهـم كان عـليّ أن أختفـي!

وأنـا أركـض وقعـت في حفـرة، فقـدت الوعـي، ولم أعـد أشـعر بـشيء...

بعـد وقـت فتحـت عينـي وقمـت، لقـد تذكـرت كيـف وقعـت هنـا... كان ذلـك آخـر شيء قـد حـدث!

٢

تعبت من محاولة تذكر كل ما حدث لي. المعركة، صديقي، القائد، السجن، وحلمي الذي كان يحلق في سمائي منذ الطفولة. أغمضت عينيَّ ونمت.

ضوءٌ ما يتسرب داخل المكان المظلم، شيئًا فشيئًا بدأت ألمح السماء، شعاع الشمس المتسرب داخل الحفرة يضيء جانبًا منها، قمت واقفًا، وشرعت بالصياح: أنا هنا.. ساعدوني... ألا يوجد أحد يسمعني...

ولما تعبت من النداء، أدركت أن لا أحد هناك يسمعني. ولا أحد سيأتي لمساعدتي، أمي بعيدة، وصديقي ليس معي، وأنا وحدي في مكان مجهول لا أعرف عنه شيئًا، عليّ أن أكون قويًّا، وأحاول أن أخرج نفسي من الحفرة. استعنت بالله، وحاولت أن أخرج منها بكل قواي، أدخل أصابعي في التربة، وأتشبث بيديَّ ببعض الأعشاش المغروسة وسط التربة. وكلما ارتفعت وأكاد أن أصل إلى الأعلى، كنت أقع على ظهري، تذكرت كلمات أبي: « بعض السقوط ليس انتكاسة، ولكنك بعده ترى الأمور بوضوح، فحين تسقط ترى زرقة السماء والكون الشاسع، وتبدأ من جديد بالوقوف، كالطائر حين يتعلم الطيران، يحاول بجناحيه أن يحلق في السماء، يقع ثم يرتفع، ويقع ثم يرتفع

حتى يصبح بارعًا في الطيران، ويحلق في السماء وهو يغرد...».
أصبحت مثل ذاك الطائر أحاول ثم أحاول بعد كل سقوط ولا أتوقف، إلى أن ارتفعت إلى الأعلى، يدايَ أصيبتا ببعض الجروح، ضربت كفي بكفي أنفض الغبار العالق بهما، ثم رميت بجسدي المنهك على الأرض، أحدق بالسماء الزرقاء، وأنا أحلم بأن أرى غيمة تمرّ من هناك وتمطر، فالعطش بلغ مبلغه مني، دعوت الله أن تمطر السماء، وأن يرسل لي من يساعدني من أهل الخير.

بعد أن ارتحت قليلاً، استجمعت قوتي، نهضت من مكاني، وقفت أمشي، اتجهت نحو طريق بين الأشجار، كنت أسير وأسير دون كلل ولا ملل، أجر قدميَّ المتعبتين، وأقود نفسي المهزومة أمام حلمي الضائع، الذي تركته خلفي.

ثم بعدها لم أعد قادرًا على السير، أجرَّ قدميَّ وأنا أتمايل يمنة ويسرة، ظهر لي رجال يرتدون أقنعة من جلد القردة، كانوا كثر، ضحكت وأنا أنظر إليهم، كنت أعتقد أنها تخيلات من كثرة التعب والعطش والجوع، لا بد أنني جننت، هل يوجد أناس مقنعون في هذا العالم؟! والقناع من جلد رأس قرد! اقتربوا مني، نظرت إليهم في ذهول، ثم هويت على أحدهم، أسندني وهو يقول:

-من أنت؟

وقعت على الأرض، أغمض عينَيَّ وأفتحهما وأنا أضحك وأقول:

-أنا من يجب أن أسأل: من أنتم؟!

قال لي أحدهم:

-نحن سكان الجزيرة. وأنت؟

- أنا سليمان...سليمان، حقًا أنا سليمان... وأنتم أشباح...

كنت أقولها وأنا أضحك. ثم نظرت للحظة من حولي وأنا ما زلت أضحك، على الأقنعة البشعة لأولئك الرجال، كنت أتساءل مع نفسي: هل هذا كابوس أم أنني وقعت في فخ جزيرة المنبوذين التي كنت أسمع عنها؟ تمتمت: «إنه كابوس وعليّ أن أستفيق منه». ابتسمت، ثم أغمضت عينيّ وغبت عن الوعي.

***

فتحت عيني في غرفة جميلة، شراشف السرير من الحرير، والستائر بألوان بهية، والغرفة ملونة بالأزرق السماوي... نظرت من حولي، لم يكن هناك أحد في الغرفة، قمت من السرير، كانت هناك ملابس موضوعة على حافة السرير ورسالة مكتوب عليها، « حين تستيقظ، اغتسل، وارتدِ ملابسك، باب الحمام من جهة اليمين قرب الخزانة «. وضعت الرسالة وتوجهت إلى الحمام، اغتسلت وارتديت ملابسي...

حين خرجت من الحمام وجدت فتاة تضع على وجهها قناعًا من جلد القردة تجلس على السرير، اندهشت من وجودها،

انتابني الفزع من نظرة عينيها المختبئتين خلف ذلك القناع، وقفت مكانها حين رأتني قائلة:

- لقد صرت واحدًا منَّا..

لم أفهم قصدها، فقلت متسائلاً:

-واحد منكم؟! كيف؟

مدّت لي قناعًا على شكل وجه قرد قائلة:

- ضع القناع على وجهك؛ لأنك لن تستطيع أن تقيم في هذه الجزيرة دون أن تغطي وجهك...

وسألتها في دهشة:

- لمَ عليّ فعل ذلك؟!

- هذا قانون عندنا.. وعدم ارتدائه مخالفة للقانون وستواجه عقوبات لن تستطيع تحملها...

لم أستوعب كلماتها، سلّمت لي القناع، أخذته من يدها، وضعته على وجهي، نظرت إلى المرآة، بدوت شخصًا آخر، شخص لا أعرفه، شخص قبيح، بوجه كوجه القرد العجوز، أسرعت بخلع القناع ووضعته جانبًا على كرسيٍّ بجانب المرآة. قالت وهي تنظر إليّ:

- نجاتك لم تكن صدفة...

- أعلم ذلك، ما من صدف في الحياة، كل شيء بقدر، ووجودي هنا مقدر من عند الله... ولكن أخبريني من أنت؟

لم تقل شيئاً، ظلّت واقفة مكانها تحدّق بي في صمت لبرهة، ثم اقتربت منّي قائلة:

- ياقوت...

قلت في دهشة:

- ياقوت؟!

شعرت بدهشتي فقالت:

- اسمي ياقوت.. أعد وضع القناع، يجب ألّا يراك أحد في هذا القصر بدون قناع...

- لمَ يجب ألّا يراني أحد بدونه؟

- قلت لك هذا قانون عندنا.

- وإن لم أفعل؟

- لن تتحمّل ما قد يحدث لك...

حملت القناع بين يديَّ أتفحصه، وضعته على وجهي، نظرت إليها دون أن أقول شيئًا، التفتت، أدارت لي ظهرها ثم غادرت الغرفة، تساءلت مع نفسي: لمَ تضع هذه الفتاة القناع؟! وأنا لمَ عليّ أن أضعه أيضًا؟ إنه لأمر غريب!

أخذت نفسًا عميقًا، جلست على حافة السرير أفكر وأتساءل: هل ما رأيته كان حقيقيًّا؟ الرجال الذين كانوا يضعون تلك الأقنعة لم يكونوا أشباحًا، وأنا لم أكن أتخيل.

كانـوا حقيقيـين، وأنـا لم أصـب بالجنـون، وهـذه الفتـاة مثلهـم... ولكـن لمـاذا يفعلـون ذلـك؟!

بـدا لي الأمـر محـيرًا، خلعـت القنـاع بسرعـة، وضعتـه عـلى السرير بجانبـي، وقلـت في نفـسي: لـن أكـون مثلهـم، لا يمكننـي أن أعيـش وأنـا أخفـي وجهـي بقنـاع مـن جلـد القـردة. عـليَّ أن أعـود إلى قريتـي، إلى أمـي، لقـد وعدتهـا، قلـت لهـا: حـين تنتهـي الحـرب سـأعود، الآن هـي في انتظـاري، لا بـد أنهـا حزينـة لأننـي تأخـرت عـن العـودة إليهـا، الحـرب انتهـت، لقـد تصالـح الجميـع، وأصبـح النـاس يعيشـون في سـلام، والوطـن صـار حـرًّا... وبثينـة، آه لقـد وعدتهـا بالعـودة أيضًـا، لا بـد أنهـا تفكـر الآن أننـي قـد تركتهـا، وأبحـث عـن حيـاة أخـرى، غـير الحيـاة التـي كنـت أعيشـها في القريـة. ربـما تظـن أننـي قـد تحـررت منهـا الآن، تحـررت مـن رابطـة فرضتهـا التقاليـد علينـا، وأصبحنـا نحـن الاثنـين بسـببها نـروض مشـاعرنا التـي تأبـى أن تكـون تحـت إمرتنـا.

عـادت إليّ الآلام التـي تسـكنني، الآلام التـي حاولـت جاهـدًا اغتيالهـا ودفنهـا في أي مـكان بعيـد، الآلام الصامتـة، الآلام التـي لا تصفهـا الكلـمات، ولا تعـبر عنهـا الملامـح والنظـرات، إنهـا آلام الـروح... حـين سرقـوا منـي حلمـي، وأعلنـوا أمامـي جميعـاً: أننـي رجـل عـليّ أن أحمـل عـلى كتفـي مسـؤولية أرملـة شـابة، وطفلـة صغـيرة لم تتجـاوز بعـدُ السـنتين مـن عمرهـا...

وبينما أنا أبحر في عالمي، دخل رجل الغرفة، وضع صينية عليها أطباق من الأكل على طاولة صغيرة في زاوية من الغرفة، ودعاني إلى تناول الطعام، أوقفته أسأله:

- من أنت؟

- خادمك جواد...

- خادمي؟ هل تمزح... أنا لا أعرفك، ولا أعرف حتى هذا المكان، فكيف يكون لي خادم؟!

تجاهل ما قلته ومضى خارجًا، أسرعت نحوه، أمسكته من كتفه قبل أن يغلق باب الغرفة، أبعدني عنه قائلاً:

- توقف عن هذا وإلا ناديت الجنود...

قلت وفي إلحاح:

- أرجوك أخبرني.. أين أنا؟ ومن أنتم؟ ولمَ أنا هنا؟ هيا يا رجل.. لا تتركني هكذا ضائعًا لا أجد أجوبة لأسئلة تحيرني!

عاد الرجل إلى الغرفة، وأغلق الباب قائلاً:

- لا تخف.. إنك هنا في أمان ما دمت تنفذ الأوامر، ولا ترفض تنفيذ ما يطلب منك...

قلت في استغراب:

- أي أوامر عليّ تنفيذها؟!

- أنت هنا ضيف الأميرة شمس... وطلبت منا أن نكرمك، وما دامت الأميرة لم تأمر بشيء فستبقى هنا في هذه الغرفة ولا تغادرها؛ حتى لا تواجه أي مشاكل.. هل فهمت يا سليمان؟

- أنت تعرف اسمي؟ ولكن كيف عرفت؟

- الجميع يعرفون اسمك... حين وجدك الجنود في الغابة قلت لهم اسمك. هل نسيت؟ ثم أنا سمعتك تهذي حين كنت نائماً...

نظرت إليه في استغراب وقلت:

- كنت أهذي؟! وماذا كنت أقول؟

ضحك الرجل دون أن يقول شيئًا، فألححت عليه أن يخبرني، ترى ماذا كنت أقول في هذياني؟ أكنت أذكر أمي وبثينة وصديقي وقريتنا؟ أم كنت أهذي بما دار في الحرب وفي ساحة المعركة الأخيرة؟ آه لو يخبرني حتى تنطفئ شعلة الفضول التي تأججت داخلي، والخوف من أن يعرفوا بقصة إطلاق النار على القائد، ولكن هل أطلقت عليه النار؟! لا.. إنه مجرد حادث، ولم يكن الأمر مقصودًا، هل يعلمون أنني كنت في السجن وحاكموني بالنفي عن وطني، وحكموا بإبادة شعوري؟ عليّ أن أنسى أن لي أمًّا، وزوجة، وابنة تبناها قلبي، ووطنًا، وصديقًا، وقرية أحلم بأن أغرس في تربتها فاكهة وخضرًا بعد النصر...

غادر جواد الغرفة، وتركني مع الأسئلة التي كانت تراودني.

***

تناولت شيئًا من الأطباق التي كانت موضوعة على الطاولة، ثم قمت وتوجهت إلى الباب، فتحته، خرجت أتمشى في ممرات القصر. كانت الممرات خالية، لم يكن هناك حرس ولا جنود، لمحت جواد من بعيد بجانب باب غرفة، كان واقفًا يحدث تلك الفتاة التي طلبت مني وضع القناع، أسرعت بالعودة إلى الغرفة، فتهت بين ممرات القصر، ولم أعرف الجهة، كانت الممرات متشابهة، والنقوش التي تزين الممرات بذات اللون وذات الرسوم. حاولت العودة إلى المكان الذي لمحت فيه جواد والفتاة، ولكنني لم أجدهما، تعبت من الدوران بين الممرات، ولم أفهم لمَ ليس هناك أي حارس في تلك الممرات، ثم جلست على الأرض، وفي لحظة ظهر لي جواد قادم إليّ، وقفت أمامه صامتًا، أشار بيده لي بأن أعود إلى الغرفة، نظرته تلك لم تعجبني، وقلت:

- لا أتذكر الطريق إلى الغرفة، الممرات متشابهة...

اقترب مني، أمسكني من ذراعي، ثم مشينا بين الممرات وأنا أحاول أن أضع علامات لتلك الممرات ببصري، وأرسم لها خريطة في ذاكرتي، حتى أتذكرها مرة أخرى، وحين وصلنا إلى الغرفة، شدني بقبضة يده على ذراعي بكل قوة قائلاً:

- لا يمكنك أن تغادر غرفتك دون قناع...

ثم دفعني داخل الغرفة، التفتُّ إليه، وضعت كلتا يديَّ على وجهي، وقلت له:

-هل عليّ أن أكون مثلكم؟ لا. لست منكم ولن أكون!

-عليك أن تكون مثلنا... هل فهمت؟

- لا، لن أفعل... لا أريد ذلك...

- ليس لديك خيار، وإلا ستقضي أيامك الباقية في سجن تحت القصر لا ترى شمسًا ولا سماءً، ولا تستنشق هواءً...

قال ذلك ووضع يده على كتفي، يحاول طمأنتي، وهو يعدني بالعودة من أجل أن يأخذني في جولة خارج القصر، ثم غادر الغرفة.

جلست على السرير، وداهمتني ذكريات الحرب، رائحة الموت، وصوت الرصاص ما زال عالقًا في ذهني، كأن مطرقة تدق على أذني. حملت القناع بين يديَّ أتفحصه، ثم وضعته على وجهي، حيث غطى جزءًا كبيرًا من رأسي. وارتميت على السرير، أنظر إلى السقف المزين برسوم ملونة بالأزرق، تذكرني بتلك الغرفة، غرفة عمي، الغرفة التي أصبحت بعد موته غرفتي. أنظر إلى سقفها مثلما أفعل الآن، وأنا أفكر في حلمي، وأتذكر تلك الأيام.

في أول يوم دخلتها كان عمي يستعد للزواج، كان يقول لي: «ما رأيك بترتيب الغرفة يا سليمان؟ انظر إلى زاوية اليمين، هناك

وضعت كنبة صغيرة سنجلس عليها لتناول الأكل، وفي الزاوية من اليسار هناك وسادتان سنجلس عليها مساء لنتسامر، هل تعلم يا سليمان؟ إن الفتاة التي سأتزوجها أجمل بنات القرية، هذا ما قالته لي جدتك، قالت: تشبه القمر في طلوعه في ليالي الربيع، وخدها وردتان من الورود التي زرعتها بيديّ هاتين بمشتل الزهور، وعيناها الشاسعتان ترى فيهما قريتنا بجبالها وسهولها وأنهارها...» ابتسمت وقلت: إذًا يا عمي أنت لن تتزوج إنسية، وإنما كائن آخر يشبه القمر، وأنا أخشى عليك من هذا الكائن، وتصبح تهذي باسمه في كل مكان... ضحك قائلاً: «يا لك من فتى مشاكس يا سليمان!» ثم بعد كل هذا، لا أدري كيف مضت السنوات بسرعة وأصبحت شابًا، ثم رجلاً يتزوج أرملته.

٣

عاد جواد إلى الغرفة، أخذني في جولة، مشيت معه بين ممرات القصر المختلفة، نزلنا عبر السلالم. كان القصر بأربعة طوابق، وله غرف كثيرة تزيد عن مائة غرفة، وكل طابق قبل أن تغادره تلتقي بحراس يقفون على الممر الرئيسيّ الذي منه تخرج إلى السلالم. أنا كنت في الطابق الرابع، نزلت مع جواد إلى الطوابق السفلية، الحراس الذين كنت ألتقي بهم كانوا كلهم يرتدون الأقنعة، يحدقون بي كلما مررت بمجموعة منهم، ثم بعدها خرجنا إلى الساحة الشاسعة للقصر. وهناك كانت فتاة واقفة تقطف الأزهار، تشبه الفتاة التي جاءت إلى الغرفة وكان معها القناع، ورغم أنني لم ألمح وجهها المخبأ تحت القناع، إلاّ أن هيئتها وشكلها أوحى لي بأنها هي، تقدمنا نحوها أنا وجواد، وقلت:

- ياقوتة..

التفتت قائلة وهي تصحح لي اسمها:

- ياقوت.. وليس ياقوتة.

قال جواد:

- أخت الأميرة شمس...

قلت في دهشة:

- أخت الأميرة؟!

- نعم، الأميرة شمس، زوجة الأمير الذي مات قبل أشهر من الآن...

ظلت ياقوت صامتة، تحدق إلينا من عينيها المخبأتين خلف عينيْ قناع القرد، بدت لي تحمل حزنًا، وحكاية جزيرة الأقنعة، وددت لو تخبرني بما يحدث، لكن جواد أمسكني من ذراعي قائلاً:

- هيا معي لأحدثك عن الحفلة...

- حفلة!

- نعم، حفلة، وأنت مدعو إليها من الأميرة...

***

أصابت الجزيرة لعنة ياقوت منذ سنوات طويلة، ربما تتساءل عن ماهية هذه اللعنة، قالها جواد، فقلت:

- ياقوت أخت الأميرة؟

قال:

- لا، إنها ياقوت أخرى، أم الأمير...

سكت برهة، كنت أنظر إليه منتظرًا منه أن يخبرني بالمزيد، فقال:

- سأقول لك كيف أصابت لعنة ياقوت أهل الجزيرة. في يوم قرر الملك أن يتزوج أجمل فتاة كانت على هذه الجزيرة، وكانت هذه الفتاة مرتبطة بابن عمها، وفي يوم زفافها، خطفها رجال الملك وأحضروها إلى القصر، ثم قتلوا خطيبها وعائلته لأنهم تمرّدوا واحتجوا على قرار الملك، أما عائلتها فقد سجنهم، وخيرّهم بين مشاركة احتفاله بالزواج بابنتهم أو الموت، فرضخوا وشاركوه في صمت يشبه صمت الأموات، حضروا إلى القصر، أكلوا وشربوا واحتفلوا مثل كل الحاضرين، ثم غادروا إلى بيوتهم دون أن يقولوا شيئًا. أما ياقوت فقد صرخت وسط المحتفلين بأنها لن تكون زوجة الملك، وأنها على عهد الحب الذي وثّق قلبها بقلب خطيبها، لن تستسلم ولن ترضخ له، وستحارب من أجل أن تتخلص من قيده ولن تكون له أبدًا. فأجبرها الملك على ترك الحفل وأخذها إلى جناحها ثم أمر رجاله بتقييدها.

حين انتهى الحفل، وغادر الجميع وهم يظنون أن هذا الزواج لن يتم، ما دام ياقوت قد صرحت بذلك أمام الملأ. الملك كانت له طريقة خاصة لإخضاعها، في صباح اليوم التالي، جمع أفراد عائلتها، أشعل نارًا وسط ساحة كبيرة، وبدأ بوضع أفراد عائلتها واحدًا تلو الآخر لعلها ترضخ، إخوتها من الأولاد والبنات، لكنها هيهات، كانت صلبة، تنظر إلى إخوتها

وهم يرمون في النار المشتعلة وهي لا تنطق، صامتة تارة، وتارة تردد: لعنة الله على الظالمين.. لعنة الله عليك أيها الظالم... إلى أن جاء دور والديها، هنا حاولت أن تفلت نفسها من قبضة رجال الملك، وهرعت لترمي نفسها في النار، لكن الملك كان هناك، ارتمى قبلها، وأخذها من فوهة النار الملتهبة، وقعا معًا على الأرض، أصيبت بحروق في يديها، وهو أصيب بحرق في وجهه. وصاح الملك في غضب يطلب من رجاله التخلص من والديها، ثم أخذها إلى القصر للعلاج، لم يمضِ سوى وقت قصير حتى أصيبت يداها بمرض ولم تعد تحركهما، وتوقفت عن الأكل، وصارت الخادمات يطعمنها بشكل إجباري، ولم يمض سوى أشهر بعدها حتى علمت الجزيرة أن الملك سيصبح أَبًا، وأن الجزيرة سيصبح لها وريث، وأن ياقوت حامل...

وفي اليوم الموعود، وُلد الأمير، تعالت الصيحات في القصر، صيحات رعب وفزع، لقد ولد الأمير مشوهًا، شكله غريب، وجهه كوجه القرد، وعيناه غائرتان يغطيهما شعر كثيف...

ياقوت بعد أن أنجبت الولد، وحينما رأته في تلك الحالة، صرخت، ثم أغمي عليها لأيام، وبعدها توفيت. حزن الملك لأشهر على وفاتها. لم يكن يغادر جناحه. وفي أحد الأيام، كان ينظر من الشرفة المطلة على الساحة، رأى الأطفال يلعبون، والناس في شغلهم هائمون، فتذكر ابنه الأمير، فأمر بأن

يحضروه له، حين رآه، قال: لن أسمح لهم بأن ينبذوك يا بني، كلهم سيصبحون مثلك! ثم أمر الجنود بأن يحرقوا جزءًا من وجه كل مولود جديد، أراد أن تكون وجوه كل الأطفال الذين ولدوا في العام الذي ولد فيه ابنه مُشوّهة، حتى لا يشعر ابنه بالفرق حين يكبر، وهكذا أصبحت الجزيرة على موعد مع محرقة، وتم تنفيذ أمر الملك بالقوة، وأحرق وجوه كل المواليد في ذلك العام.

ومرّ عامان على تلك الحادثة، ورأى الملك طفلاً في الثالثة من عمره يلعب قرب النهر مع والده وهو مبتسم، ونظر في وجه ابنه فغضب الملك، كان وجود طفل بوجه طبيعي بالنسبة لديه أمرًا غير جائز في الجزيرة، فعاد إلى القصر، وأصدر مرسومًا يأمر فيه بأن تُحرق وجوه جميع أطفال الجزيرة، سواء الذين كانوا قد ولدوا قبل الأمير، أو الذين ولدوا بعده...

واستمر حرق وجوه الأطفال إلى أن أصبح الأمير في سن السابعة، في ذاك العام تمردت مجموعة من الآباء والأمهات على هذا القرار، وقرروا أن يهربوا خارج الجزيرة، لكن لم يكن بوسعهم ذلك؛ فعبروا نهرًا يفصل بين جنوب الجزيرة وبين شمالها، وقرروا البقاء هناك في منطقة صغيرة تضم مزارع يعيشون فيها. أما الملك فقد اعتبرهم متمردين ووعد بالقضاء عليهم. لكن الجنود الذين كانوا يذهبون إلى الجهة الشمالية لم يعودوا

يومًا، كانوا يقتلون في مواجهاتهم، لأن الثوار كانوا يتخفَّون بين الصخور الضخمة، ويهاجمونهم بالسهام والحجارة الحامية التي يأخذونها من جوانب فورة بركان مشتعل يوجد في المنطقة. وبعضهم كانوا يلتحقون بتلك المجموعة الثائرة؛ فقرر الملك التخلي عن مطاردتهم، واكتفى بمنع السكان من التعامل معهم.

في ذلك العام ولدت بنتان توأم، اختارت الأم اسميهما، الأولى: ياقوت، تيمنًا باسم أم الأمير، لأنها كانت مصدر الصمود والتحدي، أرادت أن تكون ابنتها بذات القوة، ومحاربة من أجل حقها في أن تحيا بوجهها الجميل الذي خلقها الله به، وسمت الثانية: شمس. وحين أنجبتهما لم تخبر أحدًا أنها قد أنجبت بنتين. أخذ الجد ياقوت خفية إلى الجهة الشمالية، لتحيا هناك بعيدًا عن هذا الجزء التي يحكمه الملك، وسلمت شمس للجلادين لحرق جزء من وجهها، فذلك مصير كل مولود جديد في الجزيرة.

مرت السنوات، كبر الأمير، ومات الملك بسبب حادث تعرض له، سقط من على الفرس، وأصيب بكسور في عموده الفقري، وظل مريضًا لأشهر، كان صوت صراخه من الألم يصل خارج القصر، حاول الأطباء علاجه لكن دون جدوى، وبقدر ألم الملك الظالم وصرخاته، كان هناك فرح يرتسم على قسمات الأمهات اللاتي فقدن أبناءهن من جراء الحرق، أو القتل لأنهم

تمـردوا حـين كـبروا. وظـل عـلى تلـك الحـال إلى أن مـات متأثـرًا بإصابتـه. وعندمـا تـولى الأمـير السـلطة، أصـدر مرسـومًا بمنـع حـرق وجـوه الأطفـال، وعفـا عـن الثـوار الذيـن كانـوا في الجهـة الشـمالية، وعـادوا للعيـش مـع عائلاتهـم في هـذه الجهـة. وكانـت تلـك بدايـة حيـاة جديـدة للأمـير والجزيـرة.

مـرّ الوقـت بسرعـة وأنـا أتجـول في الجزيـرة، وجـواد يـسرد لي حكايـة ياقـوت، وقبـل أن أسـأله عـن الأمـير، قـال لي:

- الأمير مات، بعد أن تزوج شمس بأشهر...

- كيف مات الأمير؟

- سأخبرك مرة أخرى.

***

اسـتلقيت عـلى ظهـري فـوق السريـر، أنظـر إلى السـقف المزخـرف بالرسـومات والألـوان، أتذكـر القريـة، وأنـا بـين أحضـان الطبيعـة، أركـض نحـو الـروابي، تضمنـي الريـح التـي تهـب عـلى القريـة، تدفـع بي بعيـدًا نحـو جبـل يطـل عـلى البلـدة الصغـيرة، حيـث كانـت أحلامـي تطـير، تحلـق كالطيـور المهاجـرة، تـودع الموطـن نحـو سـاحة المعركـة، قلبـي هنـاك يطـير معهـا، آه يـا عمـي! لم رحلـت وتركـت لي سـيدة صغـيرة جميلـة، وطفلـة تحبـو تنادينـي أبي... كـم أخجـل أن أنظـر إلى عينيهـا الصغيرتـين، اللتـين تبـدوان كمدينـة مـن السـعادة المدفونـة تحـت ركام خلفـه زلـزال. ليـس

زلـزال الأرض، ولكـن زلـزال كيـاني! أشـعر أنـه قـادم عـما قريـب، سـيأخذني إلى البلـدة لألتحـق بالجنـود، لا يمكننـي أن أظـل هنـا أسـيرًا لوعـد قطعتـه لـك يـا عمـي العزيـز، فكـما كان لـك حلـم عشـت مـن أجلـه واستشـهدت مـن أجلـه، فأنـا أيضًـا لـديَّ حلـم، هـا هـو يمسـكني مـن تلابيبـي، يشـدّني كل مسـاء حـين ألمـح طيفك بينـي وبـين بثينـة، تبتسـم لي في حيـاء، وأراك هنـا بيننـا واقفًـا وفي يـدك ذات البندقيـة التـي أحلـم أننـي أحملهـا في يـدي، ثـم أهـرب مـن نفسـي، أهـرب إلى حلمـي، أركـض نحـو البـاب، أفتحـه بخفـة اللـص، ثـم أهيـم عـلى وجهـي، هاربًـا مـن طيفـك، هاربًـا مـن بسـمتها الممزوجـة باسـمك، وبهويتـك، والحـب الـذي كان بينكـما! ثـم أمـشي بـين الأشـجار، وأختفـي في الظـلام، أجلـس وحيـدًا عـلى قمـة الجبـل، وأطفـئ كل نـار مُتّقـدة داخـلي مـن بسـمتها...

في الغرفـة جسـدي أنـا، لا روحـي ولا موطنـي، ينتابنـي الخجـل مـن نفـسي، كلـما تذكـرت خيانتـي لـك، هـل كان عـليّ أن أتـزوج بثينـة فقـط لأن التقاليـد والأعـراف تأمرنـا بذلـك؟ ومـاذا عـن وصيتـك لي؟ مـاذا كانـت تتضمـن؟ هـل أكـون لهـا زوجًـا أو أخًـا؟! لا أدري مـا وصيتـك تلـك ومـا كان بـين سـطور تلـك الكلـمات!

تلـك الكلـمات تخنقنـي كلـما تذكرتهـا، تشـدُّ أنفـاسي، تمنعنـي مـن استنشـاق الهـواء النقـي، تتغلغل داخلي وتصـل عقلي، تشـغله، وتأمره بالرحيـل عـن القريـة وتـرك كل شيء خلفـي. أتقلـب في السريـر يمنة

ويسرة، وأتذكر أنك قلت لي يومًا: «الرجال يا سليمان لا يرتابون أبدًا، حين يختارون طريقًا، يمشون عليه غير آبهين بمخاطره، لا يتراجعون للخلف إلا ليرسموا خريطة طريق لمسارهم؛ حتى لا يضيعوا بين متاهات الحياة! يا سليمان حين تختار طريقك، امشِ فيه منتصب القامة، واسلك كل السبل التي توصلك إلى هدفك، حيث الصلاح والسلام، والأمن لوطنك وأنت!

لقد ضعت يا عمي! ضعت بين متاهات الحياة، ظننت أنني وجدت طريقي، ولكن هيهات...

قلت لي ذات يوم: «خلف الانتصارات انكسارات لا يعلمها إلا الله! صدقت يا عمي، لكنني لم أنتصر حتى أدرك معنى الانكسارات التي أوقعت حلمي في شباكها...»

ثم نهضت من مكاني، وقفت، ومشيت نحو الشرفة، أطل على الحديقة، أتذكر الحقل، وأمي وجدتي وبثينة، والصغيرة التي ودعتني وهي تبكي. سلمت على الجميع إلا بثينة التي تركتها في غرفتها، كلما حاولت أن تقترب مني كنت أهرب منها، ولا أدري هل أهرب منها أم من نفسي؟! كنت أراك في كل حركاتها، وكل الكلمات التي تنطقها. كل شيء كانت تقدمه لي، لم أنظر إليها، خشيت أن تظل صورتها عالقة في ذاكرتي، تؤنبني، وتعيدني إليها، خاضعًا، مستسلمًا، معتذرًا عن كل هروب من عطرها، ونظراتها...

قبلت أمي، وطلبت منها أن تدعو لي بألّا أعود إلا منتصرًا، على هزائمي أولاً، ثم على أعداء الوطن، ثم حضنتني تودعني، كأنها لن تراني، وفي عينيها دموع خرجت من قلبها قبل عينيها. ووعدتها بأنني سأعود منتصرًا بإذن الله. ثم رحلت. حزنت على فراق أمي وأحبتي، ولكن قلبي يرقص للحلم الذي أراه يحلق في سمائي منتصرًا، ومبتسماً للغد القادم، للغد الأجمل، سأكون بطلاً يحرر الوطن، وسأصبح القائد الذي يذكر التاريخ اسمه، وأنسى بثينة، وأنسى ملامح وجهها المشرقة، وأتخلص من رائحة عطرها التي لازمتني أيامًا منذ أن غادرتُ القرية.

هتف قلبي وأنا أنظر إلى الحديقة: بثينة... ربما عليّ أن أعتذر منك، لأنني تركتك تحلمين بي لأشهر، وسنوات، وأنت تنتظرين عودتي... لكنني عزمت بعد الرحيل ألّا أعود، ففي القرية أنت وطيف عمي، وأنا لا يمكنني أن أعيش رفقة امرأة بيني وبينها رجل حي في قلبي وقلبها!

وركضت نحو الحديقة، لحقني بعض الحرس، يسألونني: إلى أين؟ قلت: بثينة، لقد لحقتني من بلادي إلى الجزيرة، ربما أقامت ثورة، وأخذها الجنود ورموها في هذه الجزيرة مثلي...

ثم ركضت حتى وقفت ناحية الشجرة التي لمحت تحتها بثينة، وقفت وقلت:

- بثينة.. آسف على ما مضى، وعلى هجري لك...

التفتت الفتاة إليّ في ذهول قائلة:

- من بثينة؟!

ارتبكت وأنا أنظر إلى فتاة عيناها كنجمتين في سماء ليلة مقمرة. أسرعت إلى التقاط قناعها الذي وقع من يدها على الأرض، وضعت القناع على وجهها بخفة قائلة:

- أنا ياقوت ولست بثينة، الآن كشفت سري وعرفت أنني لست مشوهة مثل بنات الجزيرة ممن هن في مثل سني، أرجوك لا تخبر أحدًا، أختي شمس لن تغفر لي هذا أبدًا، قالت: إن رأى أحد وجهك الجميل سآمر بحرقك...

وقفت في ذهول وأنا أسمع ما تقوله وقلت:

- لا تخافي، لن أخبر أحدًا أنني رأيت وجهك...

أسرعت الخطى في الحديقة، تابعت سيرها بين ممرات الحديقة، ثم اختفت ولم أعد ألمحها.

٤

شمس والأمير، كسليمان وبثينة، هذا ما فهمته من جواد وهو يسرد لي حكايتهما، أنا كذاك الأمير، كل واحد منا كان لديه حلم يسعى لتحقيقه، حلمي أن يخلد التاريخ اسمي على خريطة الوطن، وحلم الأمير إنقاذ الجزيرة من شر غرس جذوره في النفوس، وصَعب اجتثاثه بسهولة. الأمير طيب القلب، داخله مدينة طاهرة، تشبه طهارة أمه ياقوت، ولكن الشرّ وباء إن انتشر في مكان قضى على طهارة القلوب، وعلى صلاح النفوس، يحتاج إلى سيف حادٍّ لقطع الأغصان التي تلتوي على رقاب الناس، حتى يسهل بعدها قلع جذوره من الأعماق! ياقوت احتلت قلب الأمير، وشمس أخذت مكانها لتكون سيدة القصر وأميرة على الجزيرة، وزوجة للأمير.

وبينما جواد يحكي تلك الحكاية العجيبة، عن الأمير وشمس وياقوت، أعود إلى الماضي، في ربيع عمري، بعد العشرين بقليل، استشهد عمي في الحرب، وترك خلفه زوجة وابنة. اجتمعت العائلة وقرر الجميع أن زوجة عمي الصغيرة ستتزوج شابًا من عائلتنا، ولم يكن هناك شابًا أعزب غيري، فأصدر الجميع مرسومًا بزواجنا، عارضتُ الفكرة بشدة، وأخبرت أمي وأبي بذلك، لكن أبي لم يأبه للأمر، كان القرار قد صدر من العائلة،

ولم يكن هناك سبب للرفض حسب رأيهم. أقيم حفل زفاف، واحتفل الجميع إلا أنا، في رأي أبي وأعمامي الأرض التي تركها عمي يجب أن تبقى في وسط العائلة!

ماذا ترك عمي؟ كنت أسأل نفسي كل يوم. قطعة أرض صغيرة بجانب الوادي، صالحة للزراعة، ولكن من سيزرعها؟ أنا؟ لا.. لن أفعل ذلك. كان حلمي أن أكون جنديًا، ذاك كان أملي، فلماذا يريدون أن يقتلوا حلمي؟

أريد أن أكون محاربًا، والزراعة لم تكن يومًا من اهتماماتي، رغم أنني كنت أحب من حين لآخر أن أزرع بعض الشجيرات بجانب بيتنا، تعلمت ذلك من جدي ووالدي، ولكن حين مات جدي في الحرب وكذا عمي، لم أعد أهتم بالزراعة، كل همي هو كيف أصبح جنديًا؟ ومتى أصبح جنديًا؟ وعليّ أن أبحث عن كل الطرق التي توصلني إلى هدفي، تلك كانت أمنيتي التي كنت أسقيها بالأمل كلما وضعت جنبي على السرير، أقول في نفسي: غدًا يوم جديد، ستشرق شمس أمنيتي، وسأصبح جنديًا!

تركت القرية وذهبت إلى البلدة، حيث خالي عبد القادر، هناك بدأت مشوار الدراسة في الثانوية، ثم التحقت بالجيش متطوعًا، لم أكن أعرف شيئًا عن عملي في الجيش، كنت فقط أعرف أن جدي عاش بطلاً ومات بطلاً، وهذا كان يكفي

بالنسبة إليَّ، البطولة أهم من أي إنجاز آخر في الحياة، البقية أشياء ثانوية، أن يخلد التاريخ اسمي كرجل حارب من أجل قضية ومات من أجلها، خير من أي حياة أخرى، الحياة الأخرى التي فيها زراعة وإنجاب عشرة أولاد لن تخلد اسمي!

كاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان وأنا أرى نفسي وسط مجموعة من الجنود المدججين بالأسلحة، كلهم ذاهبون إلى ساحة المعركة، وأنا لم أكن أعرف كيفية حمل البندقية، أرسلوني لتعلم إطلاق الرصاص على بعض أغصان الأشجار في غابة مع مجموعة من المتطوعين من أمثالي، ثم بعدها بأيام دفعوا بنا إلى ساحة المعركة، الأمر كان سهلاً جدًا، احتاج منا إلى القليل من الشجاعة.

في البداية كنت أنظف البنادق، أو أحشوها بالبارود، أو الرصاص، لم أكن أجرؤ على حمل البندقية على كتفي وادعاء أنني أنتمي إلى المحاربين، كنت أرى أنني أحتاج إلى وقت طويل لأصل إلى ذلك المستوى! ثم في اليوم الذي أرسلوني فيه إلى منطقة كان فيها عمي، وجدته في خيمة مع الجرحى، كان يحتضر، بقيت معه مدة، حملته بين ذراعيَّ. أوصاني على صغيرته، وعلى حبيبته بثينة، ومن لا يعرف بثينة، سيدة جميلة، لم تبلغ العشرين من عمرها، تختبئ خلف الحايك حين تغادر بيت جدي متجهة لزيارة بيت أهلها رفقة جدتي مرة كل ستة

أشهر، لا تراها العيون، فعمي رجل غيور جدًا، يغار عليها حتى من نسيم الربيع، وما كانت تغادر غرفتها في غيابه، تظل هناك تطبخ أكلها في مكان خصصه عمي لها، يعتبر بمثابة مطبخ صغير مجهز بكل ما قد تحتاجه، وقد وضع حاجزًا يفصل بينه وبين مكان النوم والجلوس في الغرفة. وكان كل شيء تحتاجه يقدم لها من طرف جدتي. كانت بعض زوجات أعمامي يشعرن بالغيرة منها لأنها تظل في غرفتها، ولا تقوم بأي عمل، من طحن الشعير، والعجن والطبخ.

جدتي كانت هي السيدة أو الملكة التي تقسم العمل على زوجات أعمامي، وأمي كانت سيدة مستقلة، لها بيت مستقل بجوار بيت جدّي، أما أعمامي الثلاثة فكلهم في بيت جدي، فالبيت كبير، وفي وسطه مساحة شاسعة مكشوفة، تغطّينا السماء. نجتمع فيها في ليالي الصيف للمُسامَرة وتناول الشاي. في طفولتي كنت أجلس بالقرب من جدّي الذي يجمع أعمامي وأبي في زاوية، بينما جدتي كانت تجمع النساء في زاوية أخرى، ولكلٍّ حديثُه، وأنا كنت أحب الجلوس بجوار جدّي وهو يتحدث عن بطولات رجالنا الأحرار من أبناء القرية في ساحة المعركة كلما عاد لزيارتنا، وبعد سنوات من مقاومة المستعمر، عاد أبي جريحًا فاقدًا إحدى قدميه ومجروحًا في كتفه، وصار جدي شهيدًا ترتوي الأرض بدمه.

بيتنا كان له باب صغير ينفتح مباشرة في بيت جدي ناحية المطبخ، حيث تقوم أمي أحيانًا بمساعدة جدتي في طحن الشعير، يتم التناوب بينها وبين زوجات أعمامي إلا بثينة.

ورحل عمي مثل الكثير من الجنود، استشهدوا من أجل الكرامة، والشرف، والحرية، والوطن... ولم يمرّ سوى أشهر على استشهاد عمي حتى توقفت الحرب، وبعدها أصبح الوطن حرًا مستقلاً.

عدتُ إلى القرية، قضيت شهورًا وأنا أمسي وأصبح على حلم الالتحاق بالجيش، كنت أنتظر رسالة يخبرونني بأني أصبحت واحدًا من أبناء الجيش وعليّ السفر إلى العاصمة، لكن للأسف لم تصلني أي رسالة، وتزوجت بثينة. بثينة التي كان يحلم بها كل شاب من أبناء القرية أن يتزوجها بعد أن ترمّلت إلا أنا. فقد أصبحت ذات شهرة بين السكان بسبب حديث النساء عن جمالها، حتى صار كل واحد في سن الزواج يرسل في طلب الزواج منها، لكن انقطع ذاك الحلم، وخاب ظنّ من عاش على الأمل بأن تكون زوجته، حين علموا بزواجها.

أما أنا فلا أرى جمالها رغم وجودها معي في ذات الغرفة، تسدل شعرها الأسود على كتفها. ثم تجلس بجانبي على السرير، تنظر إليّ، لعلني أقول لها شيئًا، وأنا الصامت الذي انقطعت كلماتي أمام جمالها وقد سُرِق مني حلمي، حلمي

أن أكـون جنديًـا لا زوجًـا لأرملـة تنتظـر أن يسـكنها رجـل بـين ضلوعـه في قفـص الحـب!

ألملـم نفـسي، أحـاول أن كـون الضـماد لجرحهـا، لفقدهـا عمـي الرجـل الطيـب والحنـون مـع أهلـه، الـشرس مـع أعدائـه في سـاحة المعركـة، لكننـي كنـت جمـادًا، مشـاعري ميتـة، ليـس لهـا موقـد يوقدهـا، فأنـا أراهـا سـيدة لا يليـق بهـا رجـل بعـد عمـي حتـى أنـا، فلتعـش عـلى ذكـراه خـير مـن أن تحلـم بالسـعادة مـع رجـل مثـلي، لا يفكـر سـوى بالركـض خلـف حلمـه، ولا يـرى للحـب مكانًـا في قلبـه. الفتـاة الوحيـدة التـي كنـت أحلـم بـأن تصبـح زوجتـي هـي لويـزا، كان ذلـك حـين كنـت في السـابعة عـشرة مـن عمـري، الفتـاة التـي كانـت تسـقي المـاء مـن البئـر، كنـت أراقبهـا مـن بعيـد كلـما ذهبـت لسـقي المـاء رفقـة أختي، حـين رآني أحـد أقاربهـا أنظـر إليها، أتـى إليَّ، لكمنـي لكمـة قويـة، ثـم هـددني، فأصبحـت أقـف عـلى بعـد مسـافة مـن البئـر وأنـا أديـر ظهـري إلى أن تغـادر، ثـم بعدهـا أتقـدم رفقـة أختـي للسَّـقي، وبعدهـا بأشـهر علمـت بزواجهـا، والآن، في قلبـي لا يوجـد مـكان لا للويـزا ولا لبثينـة ولا لغيرهمـا، فقـط الحلـم الـذي كان ومـا زال يسـتوطن ضلوعـي، أن أصبـح بطـلاً يخلـد التاريـخ اسـمي، هـو مـا يـردده لسـاني ويصدقـه قلبـي!

***

استيقظت صباحًا على صياح قرب باب الغرفة، قمت من السرير، توجهت إلى الباب، فتحته بحذر، كنت أرى الحراس يجرّون رجلاً يصرخ: اتركوني أيها الجبناء... ابتعدوا عني.. أميرتكم شمس قريبًا ستحترق بنار جهنم وأنتم معها!

نظر إليَّ أحد الحراس بنظرة حادة، وهو يقول:

-ماذا تفعل؟ لمَ خلعت القناع؟

بسرعة تراجعت إلى الداخل، وأغلقت الباب بإحكام. قلبي كان يرتعش، وكنت أشعر باهتزازه داخلي، أخذت القناع من على الأرض، وضعته على وجهي، ثم جلست على السرير أراقب الباب، أتخيل الحراس قادمون لأخذي إلى زنزانة مظلمة كالتي قضيت فيها خمس سنوات من عمري، أحاول ألا أتذكر تلك اللحظات المؤلمة، لكن الذكرى هاجمتني دفعة واحدة، وتراءى المشهد أمامي مباشرة، الزنزانة المظلمة، ضوء خافت يتسرب من ثقب صغير في أعلى أحد الجدران، بالكاد أرى به ما بداخل الزنزانة، السرير المتهالك المحشور في زاوية، الأرضية الأسمنتية المحفورة، الجدران المصبوغة بالأبيض. يصلني أنين السجناء وهم يتعرضون لأنواع من التعذيب، وصرخات استنجاد تتعالى تطلب الرحمة. كنت أضع أصبع السبابة على أذني حتى لا أسمع، لكن الصوت كان يخترق ما بين الأصبع وأذني، يصل إلى رأسي، يضغط على جهازي العصبي بقوة.

أشعر كأنَّ دخانًا سامًّا تسرب إلى داخلي، عليَّ أن أقاومه حتى لا أفقد عقلي. أقوم واقفًا في مكاني كتمثال، أغمض عيني، أتخيل أنني في القرية أتطلع إلى المروج الخضراء في الربيع، أبتسم لسنابل الحقول الشامخة، ثم أضحك بشكل هستيري وأنا أفتح ذراعيَّ في الزنزانة متخيلاً أني أركض نحو الوادي، أرفع صوتي بالضحكات حتى يغيب صوت السجناء عن سمعي، ثم فجأة يفتح السجان الباب، يقترب مني، يصفعني بقوة، أقع على السرير القريب مني، أنظر في عينيه، يرمقني بنظرات حادة، وهو يأمرني بأن أخفض رأسي وأنظر إلى الأرض، لكن كبريائي يمنعني، وأظل أنظر في عينيه. يخرج دون أن يقول شيئًا، وبعدها بلحظات يعود مع زملائه، يفتح باب الزنزانة، يدفعها بقوة. ثم أصبحت بين أيديهم كفريسة بين أنياب الذئاب...

وبعد ذلك اليوم قررت أن أصبح كائنًا آخر، كائنًا لا يشعر مثل جدران الزنزانة، لا أشعر بما يدور داخلها، ولا بما يحدث في الزنازين الأخرى، الأصوات لم تعد تؤثر بي، أعيش مع الأمل، وأنا أحلم أن أكون يومًا ما أحد الذين يشملهم العفو، أتحرر من تلك الزنزانة، ومن تلك الأصوات التي أصبحت جزءًا مني.

مرت تلك السنوات الخمس، التي كنت أحسب أيامها وشهورها على جدران الزنزانة، أسطرها بالملعقة حتى أعلم عدد الأيام التي مرت عليَّ وأنا في تلك الزنزانة، لم أيأس يومًا،

ولم أفقد الأمل يومًا من أنه ذات يوم سيفتح السجان الباب ويقول لي: لقد أصبحت حرًّا، هيا انطلق، وعد إلى قريتك، وافتح ذراعيك لنسيم الربيع... ربيع الحرية ليس له وقت، كل أيام السنة ربيع لمن تحرر من قيود الظلم. وأنا المظلوم، والمهزوم، والمنكسر أمام رغبتي في تحقيق حلمي، وخسارتي التي سطَّرتها أيام عمري!

ومضى الوقت، وجاء ذلك اليوم الموعود، اليوم الذي يتخلصون من أمثالي، الذين يحلمون كثيرًا...

وبينما أنا أعيش مع تلك الذكرى، ذكريات السجن، انفتح الباب، وقفت مكاني متسمّرًا، ظهر لي جواد أمام الباب وهو يقول:

- هيا فلنذهب...

ارتعدت فرائسي كلها، وانتظرت أن يظهر باقي الرجال، لكن لم يظهر أحد، وجواد واقف ينتظر، فقال لي مستغربًا:

- لِمَ أنت واقف هكذا؟! هيا لنقم بجولة...

تقدمت نحوه حذرًا، خرجت من الغرفة، نظرت من حولي، لم يظهر لي أحد من الحراس، تنفست الصعداء، ثم مشيت معه وما زالت تلك الذكرى العالقة في ذاكرتي تحوم من حولي!

***

جلست مع جواد بجانب النهر، كان المكان بعيدًا عن القصر، ولم يكن هناك غيرنا، قال لي:

- هذا المكان آمن.

التفتُّ أحدق فيه وأنا أنتظر أن يقول شيئًا آخر، لكنَّه ظل صامتًا، فسألته:

-ماذا تقصد يا جواد؟

- قلت لك...

- لم أفهم.

- ما الذي لم تفهمه؟

- هذا المكان آمن.

- اخلع القناع عن وجهك... واغتسل بماء النهر، إنه ماء طاهر، يحيي كل شيء حتى الأمل داخل القلوب اليائسة...

- إن أكثر ما يحيي الأمل داخلي، يقيني بأنَّ الله معي، وسيخرجني من هذا كله...

- سيتحقق لك ذلك بإذن الله...

أحسست بالارتياح من كلامه، ابتسمت، وخلعت القناع، وضعته على الأرض بجانبه، ثم قمت، اقتربت من النهر، حملت الماء بيديَّ، غسلت وجهي مرات ومرات، ثم عدت إليه، كان قد استلقى على الأرض، تمددت بجانبه، أحسست بالأمان، كأنني

رفقة صديقي حين كنا أطفالاً في القرية، نتحدث عن أحلامنا، وننسج لها من خيوط الأمل مركبًا يأخذنا من أجل تحقيقها.

التفت إليَّ جواد، وهو يحدثني عن شمس والأمير. شمس فتاة قوية، استطاعت بذكائها أن تسيطر على الأمير ثم السلطة، أقنعت الأمير بعدم الإنجاب لأنه سينجب طفلاً مشوهًا مثله، وسيتألم لحاله، ولن يستطيع تحمل نظرة الآخرين له. وسيكون منبوذًا من طرف الجميع، وسيعيد الأمير قانون والده، وسيتألم أطفال الجزيرة كلهم بسبب ابنه. وحين سمع الأمير هذا الكلام، أصيب بالكآبة وصار لا يغادر غرفته إلا في اجتماعات الوزراء التي يديرها الوزير الأول، الذي أصبح لعبة في يد شمس، فقد وعدته بأن يحصل على حصة كبيرة من منجم الذهب الذي سيطر عليه الملك منذ زمن بعيد، وأصبح مِلكًا للأمير بعد وفاته.

كان حلم الأمير قبل أن يتزوج بشمس، أن يصبح كل أفراد الجزيرة عائلة واحدة، كل ما يؤلم الفرد يؤلم الجماعة. يعيش الجميع في ودّ ووئام، بلا حقد ولا بغض. الذهب الذي يستخرجه جنود الملك يقتسم على الناس سواء، لينعم الجميع بخيرات الجزيرة.

أماني الأمير بدأت تتحقق حين عادت ياقوت وجدّها مع كل الثوار إلى داخل المنطقة التي يحكمها.

في اليوم الذي التقى بياقوت قرب هذا النهر، كانت جالسة بجوار جدّها. حين رآها الأمير، شغلت كل تفكيره، وأصبح يطمع بالزواج منها. فعيّن جدَّها مستشارًا له، وطلب من ياقوت أن تظل مع جدِّها في القصر.

وبعد أشهر اختفى جدّها، ظن الجميع أنه ذهب إلى الجهة الشمالية، لكن الجنود ذهبوا إلى هناك ولم يجدوه، فعيّن الأمير ياقوت مستشارة له مكان جدّها، وشمس حين علمت بذلك جاءت إلى القصر عند أختها، وأقامت معها بدعوى أنها تريد أن تكون قريبة من أختها التوأم. ومرت الأيام، وأصبحت شمس تحوم حول الأمير، كلما دخل جناحه وجدها هناك ترتب الأشياء مع الخادمات، وتسأله إن كان يريد شيئًا لتحضره له، وأصبحت تلازمه كالظل. وهو كان طوال الوقت حين يلتقي بالوزير الأول يحدثه عن ياقوت، وعن رغبته بالزواج منها، ولكن خوفه من أن ترفض بسبب قبح وجهه، جعله يتردد في طلب يدها للزواج. ولأن الوزير الأول كان قريبًا من شمس، أخبرها برغبة الأمير، وشعرت بالغيرة، وخططت لإبعاد ياقوت عن القصر. وفي صباح ذات يوم، اختفت ياقوت مثلما حدث مع جدّها، وغضب الأمير وأعلن استنفارًا في الجزيرة، وطلب من الجنود البحث عنها في كل مكان. وفي أحد الأيام كان الأمير جالسًا في جناحه يدعو الله أن يحمي ياقوت

ويعيدها للقصر، ويعد نفسه أمام الله بأن يكون الحارس الأمين لها إلى أن تجد رجلاً بوجه جميل كوجهها لتتزوجه. دخلت عليه شمس، وسألته قائلة:

-أتريد أن تعود ياقوت للقصر؟

- بلى. أريدها أن تعود الآن...

فقالت له:

-سأعيدها إذا تزوجنا!

استغرب متسائلاً:

-كيف؟! هل أنت من خطفها؟ كيف فعلت ذلك بأختك؟

- أختي حصلت على كل شيء، وجه جميل، تضحية الوالدين، حنان وحب الجد، وقلبك... ولكن السلطة والقصر لي أنا! إذا تزوجنا ستعود، وإذا لم تفعل فلن تعود مثل جدي...

قال مستغربًا:

-ماذا فعلت بجدك؟!

-طلبت من الجنود أن يبعدوه إلى الجهة الشمالية... ولكن للأسف في الطريق تعرض لوعكة صحية ومات، ودفنه الجنود...

- وياقوت؟ ماذا فعلت بها؟

- لم أفعل لها شيئًا بعد، إنها في مكان مظلم، ربما قد يحدث معها نفس ما حدث مع جدها؛ لذا أسرع...

غضب الأمير من شمس، وأمر الجنود بأن يضعوها في السجن، وطلب من الجنود العودة للجهة الشمالية للبحث عن ياقوت، وبعد أيام من البحث، لم يعثر لها على أثر، فقد الأمير الأمل في عثورها، فاستشار وزيره الأول، فنصحه بتحقيق رغبة شمس من أجل إنقاذ ياقوت. فكر الأمير في حلّ غير الزواج منها، ولكن لم يكن لديه خيار آخر، وأخذ بنصيحة الوزير الأول، الذي كان مصرًا أنه الخيار الأمثل لإنقاذ ياقوت. دون أن يعلم أنه متواطئ معها في خطفها وإخفائها. وتزوج شمس، وبعد زواجه منها، عادت ياقوت للقصر...

قاطعت حديث جواد وسألته قائلاً:

-أين كانت ياقوت؟

-في سرداب تحت القصر، هناك وضعها الوزير الأول. كان يعرف جيدًا كل ممرات القصر السرية، فقد كان شريكًا لشمس في فعلتها.

٥

كنت أتخيل الأمير وهو يتزوج شمس. يقف أمام الجميع ليعلن الخبر، تساءلت مع نفسي: كيف كانت حاله في تلك اللحظة؟ وما كان شعوره وهو يتزوج بفتاة تجبر نفسها عليه، وتهدده بالتخلص من أختها؟! وتذكرت زواجي ببثينة. في يوم زفافنا، كان الجميع يحتفلون، الزغاريد تعلو كل ركن من البيت، صداها تردده الجبال المحيطة بالقرية، الأطفال يغنون ويمرحون... الحلوى توزع على أهل القرية، لقد نسي الجميع موت عمي، خلعوا رداء الحزن والألم لفراقه، وأصبحت الأيام بعد انقضاء مدة حداد زوجته أيامًا عادية، أيامًا تستحق أن تعاش، أيامًا تتحول إلى سعادة وفرح بزواج جديد في العائلة. وأي زواج هذا؟ زواجي من بثينة. الأرملة الصغيرة، التي تمنى الكثير من رجال القرية أن تكون من نصيبهم، حتى إن بعضهم كان متزوجًا، ويحلم بها زوجة ثانية، لكن هيهات... عائلتي حكمت عليَّ بألّا تخرج الأرملة الصغيرة من بيت العائلة، ولن يتزوجها إلا رجل من أبنائها، ولكن من سيتزوجها وكل رجال العائلة متزوجون؟ نطق أحد أعمامي قائلاً: «سليمان، هو الفتى الأكبر بين أبنائنا، أرى أنه الأحق بزوجة عمه». قال أبي: «سليمان سيلتحق بالجيش، هذا حلمه». قال عمي الثاني

لأبي: «هل ستترك السيدة تعود إلى بيت أهلها وتتزوج برجل غريب؟ هل تسمح بأن تتربى ابنة أخينا مع الغريب؟ ثم ماذا عن الأرض؟ هل ستأخذها وتعطيها للغريب؟!» قال أبي: «سنشتري حقها من الأرض...» قاطعه عمي قائلاً: «كلا والله، لن تذهب ابنة أخينا للعيش في بيت رجل غريب، ولن نترك أرضنا يأخذها الغريب...».

وبعد جدال بين أبي وأعمامي، وافق والدي وقرر أن يجهز للزفاف. وأنا، آه مني أنا، كنت أرى حلمي يُصلب أمامي وأنا مقيد بالأعراف، والتقاليد، وعليّ أن أرضخ لها وأستسلم، وليس بوسعي الانسلاخ منها. لكنني واجهتهم واعترضت على ما قرروه، وأخبرتهم: «إنني لا أفكر بالزواج الآن، ولا غدًا، ولا حتى بعد غد. ربما يومًا ما، حينما أحقق حلمي سأفعلها، وسآتي إليكم وأخبركم بذلك، أما الآن، قضيتي التي تشغلني هي الذهاب للحرب، أريد أن أكون بطلاً، أريد أن يخلد التاريخ اسمي».. ضحك أحد أعمامي قائلاً: «من ستحارب يا سليمان؟ لقد انتهت الحرب، ورحل المستعمر...هيا أخبرنا من ستحارب؟ الأشباح مثلاً؟!» قلت: «سألتحق بالجيش، ثم بعدها هم سيقررون من سيحاربون».

ربما هم على حقّ، الحرب انتهت، ولكن حلمي كان ما زال يراودني، بأن أكون دائماً وأبدًا أحد أبناء الجيش، فقد تأتي حرب أخرى وأشارك فيها.

وبعد جدال انتهى الكلام بالقرار الذي اتخذوه دون أي اعتبار لرأيي، وخرجت من بيت جدي، أركض نحو السهول، أركض دون توقف، وقلبي يكاد يتقلص من البكاء الحارّ على حلمي الذي أراه يتبخر في الهواء، كدخان نار أخذته الرياح بعيدًا بعد أن انطفأت شعلتها، ووقفت بعد أن ابتعدت أميالاً عن حقول عائلتي، وصرخت بأعلى صوتي: لا أريد أن أظل بالقرية... لا أريد الزواج من أرملة عمي... ثم أجهشت بالبكاء. وجلست على الأرض، وأنا أقول: أريد أن أحارب وأنتصر، ويسطر التاريخ انتصاراتي على ذاكرة الوطن، هذا حلمي منذ الطفولة، لماذا يفعلون هذا بي؟ لمَ يريدون دفن حلمي بين جبال القرية وسهولها؟ بين حضن امرأة لا أعرفها؟ امرأة وهبت حياتها وقلبها لرجل قبلي، كان لها الأمان والوطن والحب، والآن أصبح شهيدًا سطّر اسمه مع بقية الشهداء على ذاكرة الوطن. لمَ لا يدعونها تعيش على ذكراه؟ مع وسام زوجة شهيد، ألَا يكفي ذلك لتحيا بيننا؟ هم لم يسألوها حتى عن رأيها بي، ورأيها بالتخلي عن حياتها مع ذكرى عمي، وطيفه الذي لا يغادر بيت جدي، روحه ما زالت هناك تطوف في كل ركن من أركانه...

وقفت أنظر من أعلى جبل إلى القرية، سمعت صوت حركة خلفي، التفتُّ، إذ بي أرى أمي، الملتحفة بالحايك، لم أصدق أنها لحقتني، لم أصدق أنها وصلت إلى هنا بهذه السرعة،

ربما خفقات قلبها جعلتها تسرع الخطى وتصل إليَّ، وشعورها بألمي، وحزني لوداع حلمي، قالت متوسلة لي وهي ما زالت لم تصل بعد عندي:

-سليمان... يا بنيَّ لا تفعل هذا بنفسك.. أرجوك لا تفعل هذا يا بنيَّ!

نظرت إليها في دهشة، وأنا لم أفهم شيئًا من نبرة صوتها، ولهفتها، وسألتها:

- ما الذي تقصدينه يا أمي؟!

قالت بصوت يرتعش:

- تعالى إليَّ واقترب يا بنيَّ...

وقفت مكاني دون أن أتحرك، مستغربًا من تصرف أمي، ثم انتبهت وأنا أنظر أمامي، أنني أقف على حافة صخرة، وبعدها جرف إن خطوت خطوتين فقط أقع إلى الأسفل. خفق قلبي من منظر الصخور في أسفل الجرف، وانتابني الفزع من فكرة أنني قد أقع فوق تلك الصخور، فيتهشم رأسي وعظامي، وتتناثر أطرافي، ويسيل دمي ليصل إلى منبع الماء في الوادي، ويحرم أهل القرية الشرب من مائه. ابتعدت بسرعة وأسرعت إلى أمّي، ورميت بكل ثقلي على صدرها، وضمّتني إليها قائلة:

-لا تخف يا بني، كل شيء سيكون على ما يرام، ستحقق أحلامك، وستذهب حيث تريد، ولن أسمح لهم أن يقيدوك!

ابتعدت عن صدر أمي قائلاً:

-ولكنهم قرروا وانتهى الأمر.. سأتزوج زوجة عمي.

-وماذا في هذا يا بنيَّ؟ تتزوجها وتحقق أحلامك، الزواج لا يمنع تحقيق أحلام الإنسان، ستذهب إلى الجيش، ولكن قبل ذلك، عليك أن تمضي بعض الأشهر مع زوجتك، وبعدها سافر إلى المدينة، الآن لا تخبرهم بشيء، وأنا سأساعدك، ولكن عدني بألّا تكرر فعلتك هذه مرة أخرى، ولا تقترب من هذا الجرف...

وعدت أمي بألّا أكرر الوقوف فوق أي صخرة تطل على جرف كما طلبت مني، ثم ضممتها، أحسست بذعرها. اعتذرت منها لأنني كنت سببًا في ذاك الخوف الذي اعتراها.

***

عدت إلى الغرفة بعد الجولة مع جواد، خلعت القناع ووضعته جانبًا، ورميت بجسدي على السرير، كنت أنظر إلى الزخارف التي تزين السقف، وأتذكر حين كنت وحيدًا أحلم بأن أصبح بطلاً، يتنفس النصر في ساحة كل معركة يخوضها، يهزم العدو، ثم يمضي محتفلاً بالنصر. وأي انتصار كيفما كان في ساحة المعركة لا بد من أن يحتفل به، فالانتصارات لا تأتي بسهولة، ومن حق المحارب أن يقيم لها حفلاً، حتى لو كان حفل شعر ونثر يرفع صوته وهو يتغنى بالقصائد ليسمعها

الجميع ممن حضر. قلبي يقول: سأحتفل كلما اخترق رصاص بندقيتي صدر العدو، سأغدو أردد أهازيج القبيلة، وسيعرف كل جندي يقاتل في كتيبتي من أي قرية أنا ومن أي قبيلة، وسيسمعون أهازيجي الثائرة، تلك الأهازيج التي ترددها زوجة عمي الذي يكبر أبي بعام وبضعة أشهر، أسمعها وهي تقطف ثمار التين كل صيف، ترددد: «ها قد أتى الصيف، أتى بالثمار والحب والنصر، نحن الثائرون دائماً ننتصر، ولا يهزمنا الشتاء، فالصيف آتٍ، آتٍ بالثمار والحب والنصر! « فتقول لها جدتي: ألا تستحين يا فتحية؟! صار أولادك في سن الزواج وما زلتِ على عادتك القديمة... فتضحك ثم تكمل: «ها قد أتى الصيف، قلبي يرفرف كالطير لملاقاة رفيقه، سنحتفل معًا وتشهد الروابي والوديان والحقول سعادتنا، ها قد أتى الصيف، رحبوا بالعائدين من أبنائنا، وانثروا الورد والزهر والعطر على رؤوسهم...».

كنت دائما أسأل نفسي: ما الذي تقصده زوجة عمي بما تقوله من أهازيج؟ حتى سمعتها ذات يوم تقول لأمي: إن زواجها بعمي لم يكن كبقية فتيات القرية، هي كانت تذهب لسقي الماء مع أختها الصغرى، وكان عمي يذهب إلى السقي أيضًا، فيبتسم لها من بعيد، وهي تبتسم له في خفاء، خشية أن تراهما العيون، وكانت تحلم كل ليلة بأن تصبح عروسًا في بيته، وبعد شهور قليلة، تحقق لها مبتغاها. وقالت ذات يوم

لأمي: إنه الحب يا جميلة! ما أجمله من شعور! لقد عرفته مع عليٍّ من نظرة رغم بعد المسافة، وما زال ينبض حيًّا فينا رغم مرور كل هذه السنوات على زواجنا، وقلت في نفسي: هل حقًا هذا هو ما يسمى بالحب؟! وما الذي بين أبي وأمي؟ لم أرَ أبي يقول لأمي كلمة واحدة عن الحب، ولا حتى أمي سمعتها تردد أهازيج عن الحب، بل إنها لا تناديه باسمه، كانت دائماً تقول له: سي الشريف.. وأبي لم يكن اسمه الشريف، بل عبد العزيز، أما أبي فكان ينادي أمي بالورد وهذا ليس اسمها، اسمها جميلة. كانت نظراتهما لبعضهما تشعان بالمحبة، ذلك الشعاع كنت أراه يصل إلينا، فنركض جميعًا أنا وأخواتي إليهما، ثم نحشر أنفسنا بينهما، ونضحك على أحجية تقولها لنا أمي، تقول إنها أخبرتها بها أمها حين كان صغيرة مثلنا.

حاولت فهم الأمر أكثر من مرة، الحب الذي تتحدث عنه زوجة عمي والحب الذي بين أبي وأمي، ما الفرق بينهما يا ترى؟! وهل هناك فرق حقًّا؟ فجاءني الجواب من أمي قائلة حين علمت برفضي الزواج ببثينة: «ستحبها يا بنيَّ! بثينة فيها صفات المرأة التي تجعل أي رجل يقع أسيرًا لجمال روحها قبل جسدها». في ذلك اليوم كنت جالسًا في غرفتي مكتئبًا، وقد ضاقت بي الأرض بما رحبت، بعد أن طفت القرية ذهابًا وإيابًا ليوم كامل دون أكل أو شرب، كنت أقف عند كل

مسجد قريب مني كلما سمعت صوت الأذان، أصلي ثم أعود أطوف السهول وأتسلق الجبال، حتى أنتهي إلى نفس النقطة التي بدأت منها، ثم أكرر الفعلة مرة أخرى، وأعود أطوف ثم أطوف القرية دون كلل ولا ملل. ولأن جسدي كان منهكًا، رميت بثقلي كله على السرير، أستجدي النوم، أطلبه بإلحاح حتى أتخلص من الأفكار التي تجول في رأسي، وظللت فوق السرير دون أن أتزحزح من مكاني، أسمع أمي وهي تصف لي بثينة، قائلة: «لو ترى عينيها، إنهما نجمتان من نجوم سماء قريتنا في فصل الصيف... أرأيت النجوم في الصيف يا سليمان؟! أنت حين كنت صبيًا، كنت تنظر إلى السماء، تحسب النجوم إلى أن تغفو فوق ركبتي، كنا نجلس في مراح البيت، وأنا أحكي لك القصة التي تحب سماعها دائماً: قصة الغول والأميرة.. هل تتذكرها؟

التفتُّ ناحيتها قائلاً:

-أمي؟

-نعم يا بنيَّ!

-لم أعد طفلاً يا أمي.. لقد صرت رجلاً!

ضحكت أمي قائلة:

-الأمهات يا بنيَّ يعتبرنَ أولادهنَّ أطفالاً حتى لو صاروا رجالاً وأسيادًا لقبائل ودول، هل تظن أنك أصبحت رجلاً في قلب

أمك؟ لا يا سليمان. أنت ما زلت في قلبي طفلاً يحتاج لحضني وحبي واهتمامي، وأرى أن بثينة ستهتم بطفلي الكبير سليمان!

انفجرت ضاحكًا من ألم يعتصر قلبي، كان ضحكًا ممزوجًا بغصة من يكون على حافة الانهيار، أنا على شفير الانهيار أيها العالم الذي لم يحرك ساكنًا من أجل حلمي، نعم، الكل تآمر عليَّ، حتى أمي! إنها ترى أنني طفل يحتاج أن ينتقل من حضن أمه الحبيبة التي تسعده بحب الأمومة، إلى حضن زوجة تسعده بحب من نوع آخر، فأنا في رأيها مجرد رجل صغير يحتاج للحضن؛ لأنه لا يستطيع الاعتناء بنفسه! لذا يجب أن يكون هناك من يهتم به. وعليه أن ينتقل من امرأة إلى امرأة أخرى، وكلاهما تقدمان له الحب على طريقتها! ما أتعسني وما أسعدني بكل هذا الحب!

ما أسعدني بحب أمي وما أتعسني بحب امرأة لا أعرف عنها غير أن عينيها تشبهان نجمتين من نجوم سماء قريتنا في فصل الصيف! وهي ليست غريبة عني، بل قريبة مني، ولكن لا أراها. لا تغادر غرفتها إلَّا بالحايك حين تذهب لزيارة عائلتها، ولا تجلس مع أمي وزوجات أعمامي، تساعدهن في البيت، فأتسلل إلى المطبخ، وأقول لها: سيدتي الجميلة، زوجة عمي الشهيد، إنني لا أصلح لك زوجًا، ولا حبيبًا، ولا صديقًا يواسيك، ولا حتى أخًا. قلبي تسكنه قضية، وفي عقلي يقيم

حلم يحدث زلزالاً في كياني، لذا ابحثي لنفسك عن زوج يليق بك وبقلبك المرهف ليقيم دولة السعادة فيك، فأنا دولتي محتلة، وعليَّ تحريرها من الاستعمار!

- هل فهمتِ ما قلته لكِ؟

قلت الجملة بصوت عالٍ، وأنا أتخيل بثينة أمامي أسألها، فهمت أمي أنني عالق في بحر الحيرة، فقالت:

- فيم تفكر يا سليمان؟

-لا شيء يا أمي.. أنا سألتحق بالجيش، ولا شيء سيمنعني، وهذا الحب الذي سينمو في قلبي، سأقطف ورده قبل أن يترك أثرًا لعطره في صدري!

***

الكل يحتفل بانكسار قلبي، أراه يتحطم أمامي كقطع الزجاج... وصرخة أكتمها، صوتها سرى في كل جسدي، تعذبني، بالكاد أستطيع التنفس، أمنع تلك الصرخة من الخروج والانفجار وسط الحفل... وأصطنع ابتسامة أسرقها من فم أمي، التي تبتسم لي كلما رأتني، وتغمز لي فابتسم رغماً عني، وأوزع الابتسامات على الحاضرين، أتماسك من أجل ألّا يرون ضعفي وهزيمتي في عينيَّ...

أبناء عمومتي يغنون ويضحكون ويغمزون لي من حين لآخر، لقد فعلتها أيها البطل، وأخيرًا ستصبح زوجًا لأجمل

امـرأة بالدنيـا، لقـد ظفـرت بمحبوبـة عمـك، يـا لـك مـن محظـوظ، كسـبت معركـة بـدون قتـال! يسـتمرون في غمزهـم ومزاحهـم، وأنـا لا أبـالي بـما أسـمع ولا بـما أرى. تلـك الحسـناء التـي يصفونهـا بأوصـاف الجـمال كلـه، لا مثيـل لهـا في الحسـن، كنـت أراهـا غريمي، تحـاول منعـي مـن تحقيـق حلمـي.

قال لي أحد أبناء عمي، وهو يوشوش في أذني:

-يا لك من محظوظ يا سليمان! وأخيرًا فعلتها...

صحت في وجهه:

-وماذا عن قلبي؟

شدني من يدي قائلاً بصوت خافت:

- اصمت يا سليمان! ماذا به قلبك؟

-قلبـي هـل فكـر فيـه أحـد؟ هـل سـأل عـن حالـه أحـد؟ لا، الـكل مشـغول بالاحتفـال...

- مـا بالـك يـا سـليمان؟ تتحـدث كأنهـم أخـذوا منـك قلبـك وأبعـدوه عنـك...

قـام ابـن عمـي مـن مكانـه، تركنـي مـع ابتسـاماتي المصطنعـة وقلبـي المهـزوم، والحائـر فيـما يفعـل.. حلمـي الـذي أراه يُكفّـن أمامـي، ويُحمـل فـوق الأكتـاف لمثـواه الأخـير، أراه استسـلم ولم يعـد يقـاوم، تركهـم يكفنونـه حيًـا، ويدفنونـه حيًـا، تركهـم يفعلـون بـه مـا شـاؤوا!

آه مـن جُبنـي... لم أهـرب وأتركهـم خلفـي، وأحمـل حلمـي فوق كتفـي، لأصنـع لـه مجـدًا يذكـره التاريـخ لمـن يـأتي بعدي!

استيقظت على جلبة بالخارج، قمت من السرير، خرجت إلى الشرفة، رأيت الجنود يسرعون ذهابًا وإيابًا، كان أحدهم يقول: أمسكوه بسرعة قبل أن يهرب...

تعالت الأصوات والهمهمات: ها هو... لقد وجدناه...

تذكرت أنني لم أضع القناع، أسرعت إلى الداخل، ارتديت القناع، ثم فتحت الباب أنظر إلى الخارج بحذر من خلف الباب، كان جواد قد قال لي حين كنا عائدين إلى القصر:

- يجب أن تبقى في الغرفة ولا تغادرها، فقد يأخذك الحراس إلى الأميرة، وأنا لا أريد أن يحدث ذلك...

- ولماذا؟ ممَّا تخاف؟ هل ستقتلني؟

- لا، ولكن ربما تجعلك أحد رجالها... وأفشل في إنقاذ ياقوت...

- لم أفهم قصدك يا جواد... ما علاقتي بياقوت؟

- هل تظن أن وجودي معك صدفة؟ لا، أنا هنا معك من أجل مهمة...

- مهمة؟!

- أجل يا سليمان... لقد أقنعت الأميرة ببقائك في القصر، ووعدتها بأنني سأعلمك وأجعلك واحدًا منا، وحين يأتي اليوم

الموعـود لاختيـار أمـير للجزيـرة، سـتكون واحـدًا مـن المشـاركين في الحفـل، وهـي اقتنعـت بكلامـي...

قاطعته قائلاً:

- واحد من المشاركين في الحفل!

وضع يده على كتفي قائلاً:

- سـيكون هنـاك حفـل يـا سـليمان، وذلـك مـن أجـل اختيـار أمـير يتـزوج شـمس ويسـاعدها في الحكـم، هـذا مـا قـرره مجلـس المستشـارين، ومنهـم الوزيـر الأول، اليـد اليمنـى لشـمس، ولكـن أنـا لـديَّ رأي آخـر...

أبعـدت يـده عـن كتفـي، أطبقـت صامتًـا لبرهـة وأنـا أفكـر فيـما قالـه، ثـم قلـت لـه متسـائلاً:

- ما هو رأيك؟

- أن تتـزوج ياقـوت وتغـادر الجزيـرة... لقـد وعـدتُ جدَّهـا بحمايتهـا حـين كنـا في الجهـة الشـمالية...

نظرت إليه في دهشة حين قال ذلك، وقلت له متسائلاً:

- أتزوج ياقوت؟! هل تمزح؟

- لا أمـزح أبـدًا يـا سـليمان... الأمـر معقـد جـدًا، إذا لم تسـاعدني في إخـراج ياقـوت مـن الجزيـرة، فلـن أنقـذك ممـا قـد تفعلـه بـكَ

شمس إذا اختارتك زوجًا لها، ستجعلك دمية بين يديها، وتحول حياتك إلى جحيم، أنت لا تعرف شيئًا عن شراستها، تحت القصر سرداب فيه بركة للتماسيح، كان الملك يتخلص من معارضيه برميهم في تلك البركة، وهي ورثت عنه ذلك، كل من يعارض رغبتها ترسله إلى هناك ليصبح طعامًا للتماسيح...

قاطعت كلامه بسؤال تبادر إلى ذهني:

-وأنت لِمَ اخترتنِي لهذه المهمة؟

- لأنك تبدو رجلًا صالحًا...

- وماذا لو لم أكن كذلك؟

-حدسي لا يخطئ، أرى ذلك في عينيك، العيون لا تكذب، لغتها ترجمان لما في القلب!

- أنت تبالغ... الصلاح لا يبدو في العين.

-الصلاح في القلب، والعين تظهر لمعة جماله ورونقه، وأنا أراها في عينيك!

- هل أنت أيضًا من الثوار؟

- لا، لقد كنت أحد جنود الملك، ولكن حين ذهبت لقتال الثوار في الجهة الشمالية، وقعت أسيرًا في أيديهم، كنت جريحًا، اعتنوا بي، وقررت الانضمام إليهم، ولكن لا أحد يعلم، فقط الجد وياقوت. شمس تظن أنني واحد من رجالها، إذا علمتْ

أنني لست كذلك ستتخلص مني ومنك؛ لذا احذر أن تحدث أحدًا بما قلته لك...

وبعد صمت حاولت فيه استجماع أفكاري المبعثرة ممّا سمعت من جواد، قررت أن أتخذ قرارًا حاسماً مع نفسي قبل أن أخبره به، لا يمكنني أن أتزوج بنفس الطريقة التي تزوجتها من قبل، لا بد أن يكون لي موقف. قلت:

- سأساعدك في إخراج ياقوت من الجزيرة، لأنني أيضًا أريد المغادرة، ولكنني لن أتزوجها...

- لماذا لا تتزوجها؟ إنها فتاة جميلة... هل رأيت وجهها؟

- نعم رأيته، ولكن هل الزواج مرتبط بالوجه أم الروح؟ أنت لم ترَ بثينة، جمالها يفوق جمال الورد، والزهر، والقمر في طلعته، ولكن حلمي كان مقدسًا فلم أرَ سوى أنها امرأة وحيدة تركها لي عمي وعليَّ الاعتناء بها!

- من تكون بثينة؟

- زوجتي.

- إذًا كنت متزوجًا ولكن الآن لم تعد كذلك؟

-بل ما زلت كذلك، في وطني لديَّ عائلة يجب أن أعود إليها، وزوجة ما زالت مع عائلتي في القرية تترقب عودتي...

وتمتم جواد بكلمات لم أفهمها، وهو يتحاشى النظر إليَّ، ثم قال:

- خيرًا إن شاء الله.

وانتهى الكلام بيننا، ولم أناقشه بعد ذلك حول هذا الأمر.

أغلقت الباب بسرعة، وأدرت ظهري، اتكأت على الباب، لم أهتم كثيرًا بما كان قد قاله لي جواد عن الخروج من الجزيرة، ولكن كان اهتمامي بما قاله لي عن شمس، هل يعقل أن تكون بهذه الوحشية؟ متى تصبح المرأة هكذا؟ أفعى سامة، تنفث سمها للحصول على ما تريد، لم أعرف واحدة هكذا، كل النساء اللاتي عرفتهن طيبات القلب، جميلات الروح. ولكن الشرّ لا يعرف الفرق بين نفوس الرجال والنساء، حين يتسلل إلى داخل أحدهم، يتغلغل عميقًا، حتى يصعب اجتثاثه!

***

جلست على السرير أنتظر جواد، لكن الذي دقّ الباب بخفة ثم فتحه كانت ياقوت، أحضرت لي الفطور. تقدمت نحوي، ألقت التحية، وضعت الصينية على الطاولة، ثم همّت بالمغادرة، شكرتها، فالتفتتْ قائلة:

- هذا واجبي، لقد عينتني الأميرة لأقوم بخدمتك...

- تقصدين أختك شمس...

- الأميرة، هذا لقبها، وهي تحبه، ولا تقبل بأن يناديها أحد بالأخت، أو باسمها...

- لكن أنت أختها، كان عليها أن تكرمك وليس أن تضعك خادمة في القصر...

- هذا قدري، كنت عزيزة ومكرمة مع جدي رحمه الله، ثم مستشارة للأمير... والآن في عهد أختي، أنت ترى ما حلّ بي، وعليَّ تقبل هذا الوضع، لأن هنا في الجزيرة من هم أسوأ حالاً مني، على الأقل أنا لي مأوى يؤويني...

- المأوى ليس مجرد سقف يؤويك من برد الشتاء وحر الصيف، وإنما قلب حنون يؤويك ويضمك بين ثناياه!

- قلب أختي خالٍ من المحبة، فكيف يضمني بين ثناياه؟

- عليك أن تجدي طريقة للتصالح مع أختك...

ضحكت وقالت:

- التصالح؟! يتصالح الإنسان مع أخيه حين يكون الأخ إنسانًا، أما وقد أصبح شيئًا آخر، بعيدًا كل البعد عمّا يكون عليه الإنسان، فهذا محال!

قمت واقفًا، واقتربت منها قائلاً:

- لقد تحدثت مع جواد... سأساعدك وأخرجك من هذه الجزيرة...

قالت بصوت خافت:

- ما الذي تتحدث عنه؟ إياك أن تقول شيئًا كهذا مرّة أخرى، كل الغرف تحت المراقبة، هناك جهاز تنصت...

قالت ذلك ثم أسرعت بالمغادرة. وقلت في استغراب:

- جهاز تنصت في الغرفة! هل تقصدين أنني تحت المراقبة؟

حين طرحت السؤال كانت قد غادرت الغرفة، وضحكتُ بسخرية، ربما تفوهت ببعض الحماقات في نومي وسمعتها، هذا كل شيء، فأنا لا أكلم الجدران حتى أخشى منها، أو أحدث نفسي بصوت عالٍ...

وجلست على كرسيٍّ قرب الطاولة، وبدأت بتناول الفطور ولكنني لم أستطع، قمت إلى السرير وقد انتابني التوجس مما قد يحصل، ثم اطمأن قلبي حين تذكرت الآية: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، وأنني قد مررت بلحظات أشدّ من هذه، ظننت أنها النهاية، ولكن الله أنقذني مما كنت فيه، فَثَبتُّ مكاني، وعدت للجلوس أمام الطاولة لتناول الفطور. تذكرت وجبة الفطور التي كانت تعدها بثينة، وتضعها على الطاولة، مع باقة من الزهر في مزهرية من القش، كانت تطلب من أختي كل صباح أن تقطف لها بعض الورد والزهر بالقرب من بيتنا، وتنظم الطاولة بشكل أنيق، ثم تعطر الغرفة، وتوقظني من النوم، فأجد الفطور الشهي ساخنًا، خبز الشعير المحمص، وحرشة السميد الساخنة، والشاي الأخضر، وزيت الزيتون، والجبن، والزبدة الطرية... وكل ذلك تم ترتيبه على الطاولة بشكل يوحي على أنها لوحة فنية من تشكيل أنامل فنانة.

أجلس قبالتها دون أن أرفع نظري عن الطاولة، حتى لا تلتقي عيني بعينيها!

ارتشفت الشاي، حاولت محوى تلك الذكرى، قمت من مكاني، أخذت نفسًا عميقًا، وعدت للجلوس على السرير، ولكن الذكريات أبت أن تتركني بسلام، هاجمتني مرة أخرى، هاجمتني بقوة، كنهر فاض ماؤه من غيمة ممطرة غطت سماءه. تلك اللحظة التي لا تنسى، لحظة زواجنا، حين انتهى الحفل، وعليَّ الدخول للغرفة، لأرى بثينة أول مرة في حياتي كلها.

كنت أسأل نفسي: هل حقًّا حانت اللحظة، وعليَّ أن أدخل غرفة عمي؟ هل حقّا أصبحتُ زوجًا لأرملته؟ ترى كيف هي؟ هل هي جميلة كما يقولون؟ ماذا لو كانوا يكذبون؟ ثم لمَ أسأل؟ هي ليست لي، إنها زوجة عمي، وستظل هكذا بالنسبة لي!

ثم سألني قلبي الذي يرتجف داخلي:

- ماذا ستقول لها حين تراها؟

فيرد عقلي الذي يدور في رأسي كالمرجيحة، غير مستوعب ما يحدث:

- أي شيء أيها الأبله. فقط لا تظل صامتًا، كن رجلاً كما لو كنت في ساحة المعركة، ألا تريد أن تحارب من أجل أن يذكر التاريخ اسمك؟!

- بلى!

- إذن اعتبر هذه أولى معاركك، وعليك أن تنتصر فيها، ستثبت لنفسك أنك رجل قادر على حل الأزمات، لن تترك هاجس الخوف الذي ينتابك يحتفل بالنصر لهزيمتك! حين تدخل الغرفة، اكشف عن وجهها وقل لها إنها جميلة كالقمر، وفاتنة كالأزهار، وساحرة كالزمرد... قل لها أي شيء يراودك في تلك اللحظة ولا تظل صامتًا!

ووقفت منتصب القامة أمام باب الغرفة. أبناء عمومتي كلهم بجواري، كانوا يدفعوني للدخول، ويهمسون في أذني بكلمات بعضها لم أفهمه، أو ربما لم يكن لديَّ مزاج لفهمه! قلبي يخفق بسرعة، ويدايَ ترتعشان، وعظامي تحدث زلزالاً في كل جسدي. أتصبب عرقًا، القطرات تسيل مني وتقع على الأرض أمامي، أحاول أن أمد يدي إلى مقبض الباب، ولكنني لا أستطيع. انتابني شعور أن عمي خلف الباب، يوجه بندقيته نحو صدري قائلاً: سليمان... سليمان...

أتلعثم وأنا أجيبه:

- نعم... نعم يا عمي...

- ماذا تفعل هنا؟

- أنا؟

- نعم أنت يا سليمان.

- أنا تزوجت بثينة!

تشتعل شرارة في عينيه، وهو يصيح في وجهي:

- ماذا قلت؟ كيف؟! كيف فعلتها؟!

- لم أفعلها! هم زوجوني بها، ما كنت لأفعلها يا عمي فلا تلمني.

- لقد خنتني يا سليمان.. خنتني...

ثم يضغط على الزناد، وأنتبه أنني أتخيل، آخذ نفسًا عميقًا، وأقول: عمي شهيد، في الجنة الآن بإذن الله!

وأمسك مقبض الباب بيدي، أضغط عليه بقوة، أحاول فتحه، لكن قلبي خانني، فأبعدت يدي بسرعة وأنا أقول:

- لا أستطيع...

قال أحد أبناء عمومتي:

-يا لك من أبله! عمي مات، وأنت أصبحت زوجها، انسَ عمنا الشهيد وتقدم...

وقال الآخر:

- هيا افعلها يا سليمان!

حاولت أن أستجمع شجاعتي، وأواجه مصيري، عمي ربما هناك يختبئ خلف الباب، وفي يده البندقية، سأنتهي. ولكن لا بأس بذلك، ما دام حلمي قد دفن...فأنا أيضًا سألتحق به راضيًا...

كنت أشعر بوجهي يتغير لونه، لكن لا أحد يرى ما صار بوجهي، لأنه كان مغطى بقِبّ الجلباب الذي أسدل على رأسي كما هي عادة التقاليد عندنا، العريس يكون مغطى الوجه وكذا العروس التي تنتظرني أن أكشف عن وجهها، وأكسر غصنًا من أغصان اللوز أو الزيتون مربوطًا بسبنية يوضع خلف التاج فوق رأسها، ثم أخرج بالغصن المكسور ليعرف الجميع بذلك، حتى يعلموا بقوتي وشجاعتي، وبأنني أستحق أن أكون زوجًا ورجلاً مسؤولاً!

وفي لحظة خاطفة، دفعوا بي إلى الأمام، وفتح أحدهم الباب، ثم أدخلوني بدفعي دفعة واحدة للداخل، واغلقوا خلفي الباب، رفعت عن رأسي قبّ الجلباب، وجُلت بنظري في الغرفة أبحث عن عمي، تخيلته جالسًا على كنبة قديمة بالقرب من النافذة، ينظر إليَّ بنظرات حادّة، ويسألني:

-لِمَ أنت هنا؟ ما الذي تريده يا سليمان؟

أفرك عينيَّ، أتأكد من أن هذه مجرد تخيلات، ثم أبتسم حين أرى الكنبة خالية، وأتذكر حين كان يجهز لعرسه، وقال لي:

-سليمان، ما رأيك بأن أضع السرير جهة النافذة؟

أجيبه:

-أظن يا عمي من الأفضل أن تبعد السرير عن النافذة، ما رأيك بجهة اليمين من الغرفة، وتضع الكنبة بجوار النافذة، هناك ستجلس مع زوجتك لتناول فنجان الشاي مساء..

يبتسم قائلاً:

- أنت يا سليمان أكثر ولد أحبه من أولاد إخوتي.. لقد عرفت الآن لمَ أحبك! أنت ستكون بطلاً مثل عمك، وستكون رجلاً لا يشبهه أحد، لك ذوق رفيع، ولك مشاعر أيضًا أيها الفتى...

ثم يضحك بصوت عالٍ وهو يقول:

-العروس التي ستسكن قلبك وغرفتك ستكون سعيدة يا سليمان!

وسمع صوت الضحكة كل من في البيت، ودفعهم الفضول ليعرفوا سبب تلك الضحكة الرنانة، ولكن عمي أخبرهم: أن سبب الضحكة نكتة سخيفة. ثم نعود لترتيب الغرفة، وأشير عليه قائلاً: هناك في تلك الزاوية ضع طاولة صغيرة، وفوقها مزهرية من القش يا عمي. ثم أسأله:

-هل أحضر لك زهورًا من الأزهار التي زرعتها أمام البيت؟

يبتسم قائلاً:

- أجل، هيا يا فتى أحضرها بسرعة!

ثم أمضي لإحضار الأزهار مبتسماً، وبعدها أعود بباقة منها. يزين الغرفة، ويعطر كل زاوية منها بالبخور. في ذلك الوقت لم يكن قد تبقى سوى يوم على حفل الزفاف.

آه من تلك الذكريات التي هاجمتني، واستولت على رأسي الصغير، وأحدثت فيه ضجيجًا أنهكني. أغمضت عينيَّ، واتكأت على الوسادة، تنفست بعمق، وحاولت أن أتذكر كلمات أمي: «هذا الزواج لن يمنعك من تحقيق حلمك يا بنيَّ! إنما هي أيام وأشهر ثم تذهب إلى حيث تريد، وستترك زوجتك معنا مثلما فعل عمك، لا تتعب نفسك بالتفكير...» .

سألت نفسي في ذلك الوقت: هل ما قالته لي أمي يمكنني أن أحققه؟ هل يمكنهم أن يتركوني أغادر القرية للحرب؟ وصاح صوت أبي داخلي بالكلمات التي كان يرددها لي دائماً في تلك الأيام: «عن أي حرب تتحدث يا سليمان؟! لقد انتهت الحرب، وعمك كان آخر شهيد، وآخر جندي دفع ثمن حياته من أجل الوطن، وكما ترى لقد حصل الوطن على الاستقلال. ولكن هناك بعض الثوار رفضوا أن يضعوا السلاح حتى تتحقق مطالبهم، وأنت لن تذهب لتقاتل إخوتك، أليس كذلك؟»، ويعارض قلبي كلمات أبي، وأردد مع نفسي: سأذهب، هذا حلمي، أريد أن أحقق النصر... ثم قلت مع نفسي: أصدق كلمات أمي، قلب الأم لا يعرف الكذب ولا المراوغة، قلب أمي صادق، وسأتجاوز كل هذا، وأحقق حلمي!

وها أنا الآن، قد حققت حلمي، ولكنني خسرت المعركة. ألوم قلبي وعقلي أمام هذا المصير الذي لا أعرف له نهاية!

***

فتحت عينيَّ، وتذكرت تلك اللحظة الحاسمة، حين تقدمت نحو السرير، جلست بجوارها، بقيت صامتًا لفترة، ثم التفتُّ إليها، أفكر فيما أفعل، ثم رفعت الغطاء المزخرف الذي وضع على رأسها ليغطي وجهها، كنت متحمسًا لرؤية وجهها رغم ما لديَّ من الرفض لهذا الزواج، كنت أودُّ أن أتأكد مما سمعته، أحقًا هي جميلة أم مجرد خرافة ترددها الألسن؟!

مددت يدي، رفعت الغطاء، حُسنها باغت بصري، نظرت إليها نظرة خاطفة، بدت لي قمرًا مضيئًا يشع في سماء اختفت منها النجوم!

بثينة! بالكاد نطقتها. ثم أبعدت نظري عنها، رفعت رأسها، نظرت إليَّ، ونظرت إليها مرة أخرى، ملامحها المضيئة لم تكن تقول شيئًا، غير أنها بدت لي كأسيرة تم قيادتها لزعيم قبيلة زفت إليه بدون رضاها! ذلك ما وصلني من تلك النظرة. ثم بعدها في لمح البصر ظهر عمي في بؤبؤ عينيها يحمل البندقية ويوجهها إليَّ، تحركت قليلاً وعدت إلى الخلف، مبتعدًا عنها بمسافة كأنني هارب من شيء ما، وبدا لي عمي غاضبًا وفي عينيه شرارة نار تكاد تصل إليَّ لتحرقني! ثم قمت من مكاني وتوجهت نحو الكنبة، جلست للحظة وبعدها أطفأت الفنار، ثم تمدّدت بجسدي المنهك بسبب الصراعات الداخلية على الكنبة، وأنا أحاول أن أمسح صورة عمي العالقة في ذهني. تلك الصورة التي رأيتها في عين بثينة!

وتذكـرت الأعـراف والتقاليـد، والغصـن الـذي عـليّ كـسره، قمـت مـن مـكاني، أشـعلت الفنـار، تقدمـت نحوهـا، كانـت مـا زالـت جالسـة في مكانهـا، أخـذت الغصـن، كسرتـه إلى قسـمين، ثـم فتحـت البـاب قليـلاً، رميـت بالغصـن المكسـور بالقـرب مـن أبنـاء أعمامـي، ثـم أغلقـت البـاب، عـدت إلى الكنبـة، واسـتلقيت عليهـا أصـارع أفـكاري.

٧

في المساء خرجت إلى الشرفة، أنظر إلى السماء المتلألئة بالنجوم، وإلى القمر الذي بدا معلقًا في السماء، أنظر إليه وأتذكر القرية، والسلام الذي كان يحلق في سمائها، وصديقي الذي كان يرعى الغنم معي، وأذهب معه إلى المدرسة، كُنَّا رفيقين في كل شيء، ولم يترك أحدنا يدَ الآخر، ولولا الحرب البائسة التي فرقتنا، وجعلت لكل واحد منا عالمًا خاصًّا به، وحلمًا يحارب من أجله، وحياة مختلفة عمّا كنا قد تعودنا عليه في القرية، لكنا ما زلنا صديقين. لكنَّ قلبي له رأي آخر، يردد دائمًا: عمر ما زال صديقي، صديق قلبي، لو كان هنا الآن ما كان ليتأخر عن مساعدتي للعودة إلى الوطن. سيطلب العفو من أجلي، وسيخبرهم أن ما حدث لم يكن مقصودًا، وأني رجل وطنيٌّ حرٌّ... وبعدها سيصدر قرار العفو، وسأعود إلى القرية.

وبينما أنا أحدق بالقمر، سمعت حركة خفيفة في الحديقة قرب الشرفة، فوجّهت بصري نحو المكان الذي صدر منه الصوت، فظهر لي ظلّ شخص كأني أعرفه، وددت لو أنزل إلى الأسفل وأخرج إلى الحديقة، لأتأكد من ذلك، ترددت في بادئ الأمر، وفكرت بعض الوقت، ثم عزمت وتقدمت إلى الباب، فتحته بحذر، نظرت إلى الخارج، بدا المكان خاليًا،

تمشيت ببطء بين الممرات وأنا أحترس حتى لا يراني أحد، ثم نزلت السلالم، وصلت الباب، تصرفت كأنني واحد من رجال السلطة في الجزيرة، نفخت صدري، وعدلت من هندامي، ثم مررت أمام الحراس، وخرجت إلى الحديقة. تمشيت نحو المكان الذي بدا لي فيه ذاك الظل تحت الشرفة. اقتربت، ظهر لي جواد يقف بجانب فتاة، تقدمت نحوهما، ما إن رأتني الفتاة حتى ابتعدت واختفت، التفت إليَّ جواد يسألني بصوت شبه مهموس:

- ماذا تفعل هنا يا سليمان؟

لم أجد جوابًا مقنعًا لسؤاله، فسألته بدوري قائلاً:

- وأنت ماذا تفعل؟ من تكون الفتاة؟ هذه ليست ياقوت...

أمسكني من ذراعي، جرني مبتعدًا عن المكان بمسافة، وقفنا بالقرب من بعض الأشجار، ثم قال لي:

- الفتاة صديقة ياقوت... ياقوت اختفت.

- كيف؟!

- لقد كانت هذا الصباح في غرفتي...

- ماذا قلت لها؟

- لا شيء.

ثم تذكرت الحوار الذي دار بيننا، وقلت:

- يا الله! ماذا فعلت؟!

- ماذا فعلت يا سليمان؟! بسرعة قل لي...

وحكيت له الأمر، والحوار الذي دار بيننا، ضرب بيده على جبهته وقال:

- طلبت منك أن تحترس، ولكن أنت لم تهتم بكل ما قلته لك.

- آسف يا جواد، كان عليّ أن أكون أكثر حذرًا ولكن...

قاطعني قائلاً:

-لقد أخفوا ياقوت، هذا إذا لم يتخلصوا منها...

سألته:

- ماذا سنفعل الآن؟

- بل قل: ماذا ستفعل الآن؟ عليك أن تجد فكرة من أجل إنقاذها، أنت من تسبب بهذا، لقد حذرتك من قبل، وطلبت منك أن تحترس...

عدت إلى الغرفة أفكر فيما قد أفعله لأنقذ ياقوت، وسهرت الليلة أجاهد نفسي من أجل فكرة قد تساعدني لأخرجها من الورطة التي وقعت فيها بسببي، لقد أصبح حلم العودة للوطن مرتبطًا بياقوت ونجاتها، عليَّ أن أجد حلاًّ كي لا أبقى عالقًا مع هؤلاء الرجال المقنعين بأقنعة القردة.

وأنا أفكر في خطة راودتني فكرة سأخبر بها جواد صباحًا، كان قد وعدني بأن يأتي ليأخذني إلى النهر. وانتابني شعور غريب، وسؤال يحيرني: لمَ أهتم بياقوت مع أنني لم ألتقِ بها سوى بضع مرات؟ ليجيبني قلبي: أرى في عينيها وطني، وصورة أمي وهي تودعني، دموعها الحبيسة بين مقلتيها تقول لي: لن نلتقي... ربما هذا هو اللقاء الأخير. ولكنني، في تلك اللحظة، تجاهلت المشاعر التي كانت تسكن عيون أمي. وصوتها يذكرني بآخر كلمة قالتها لي بثينة وأنا أهم بمغادرة الغرفة: هل ستعود؟ قلت دون أن التفت إليها: سأعود.. كم كنت أنانيًا، ماذا لو قلت لها ربما لن أعود وأحررها مني؟ متى كان المحارب يعِد بالعودة وهو يحمل روحه في كفه؟!

***

استيقظت باكرًا على صوت جواد وهو يوقظني: سليمان... سليمان... فتحت عينيَّ، قال لي:

- هيا لأخبرك بالقواعد التي يجب أن تتعلّمها قبل حضور حفل الغد.

قمت جالسًا في مكاني وقلت في دهشة:

- الحفل غدًا؟! لكنَّك قلت لي: سيكون بعد أسابيع.

- لقد أصدر الوزير الأول مرسومًا بأن الحفل سيكون غدًا.

- لمَ هذا التغيير وبهذه السرعة؟!

- توقف عن طرح الأسئلة يا سليمان وقم من السرير.

قمت من مكاني متثاقلاً، لم أستوعب أن الحفلة ستكون غدًا، من المحتمل أن تختارني شمس لأكون زوجها، والأمير الذي سيشاركها في حكم الجزيرة، ولكن ماذا عن ياقوت؟ قلتها مع نفسي.

تناولت الفطور الذي أحضره جواد. كان يراقبني في صمت، ويحدثني بلغة الإشارة التي لم أفهم منها سوى أن أظل صامتًا، وأتوقف عن طرح الأسئلة.

ثم انطلقنا بعد ذلك نحو النهر. وأمام النهر وقفت أحدق في الماء الراكد، أنظر في صورتي المعكوسة على الماء، بعد أن خلعت القناع ووضعته جانبًا، كان جواد جالسًا على الأرض بالقرب مني. قال:

- إنك تشبه ياقوت.

ابتسمت قائلاً:

- أشبهها؟!

- نعم، روحكما واحدة، كأنها قطعة انشطرت منذ زمن ثم حين التقتا اتحدتا!

-الأرواح جنود مجندة، وروحي ما زالت تنتظر أن تلتقي برفيقتها.

- لقد وجدتْ روحُك رفيقتها الآن.

- ربما لم يحصل بعد، أو حصل ولم أشعر بذلك.

- أرأيت؟ لقد قلت لك، روحك وجدتْ رفيقتها!

لم أهتمّ كثيرًا بما قاله، جلست بجانبه قرب النهر أستمع لما يقوله وهو يتحدث عن ياقوت وشمس.

ياقوت ولدت كنجمة من رحم المعاناة، صرختها الأولى كانت بكاء للحظة خاطفة، ثم أغلقت عينيها، بعد أن ارتشفت حليب أمها للمرة الأولى والأخيرة. حملها جدها بين ذراعيه، واختفى في الظلام، كان عليه أن يجد مكانًا آمنًا لها. لن تكون ضحية مثل كل أطفال المملكة. أما توأمها شمس فقد حملتها أمها إلى صدرها، بكتها في صمت، وقالت: «آه يا صغيرتي كم قاسٍ أن يشوهوا وجهك البريء الجميل! آه من ملك ظالم بقلبٍ من حجر، إن ما يفعله هو ورجاله لجريمة كبرى»، ثم بكت وهي تضمها إلى صدرها دون أن تتوقف عن البكاء، ونامت بجانبها واستسلمت للأمر الواقع. أما الأب فانزوى في غرفة مظلمة، كان يأمل أن تحدث معجزة تنقذ ابنته شمس، ولكن الأمر كان مستحيلًا، الجد كان عليه أن يختار واحدة، وحين وضع الأب التوأمان أمامه، اختار ياقوت وحملها بين ذراعيه، ومضى بها متخفيًا إلى الجهة الشمالية.

في الصباح كان هناك طرق عالٍ على الباب، دخل الجنود، أخذوا الرضيعة، صرخت الأم، حاولت أن تمنعهم، ولكنَّ أحد الجنود أخذها منها عنوة، ودفعها أرضًا. لحقهم والدها يهرول خلفهم، وهو يحاول أن يأخذها من بين أيديهم، فدفعه أحدهم أرضًا.

في الخارج كان هناك إناء حديدي فيه نار مشتعلة، وفوقها حديدة موشومة ببعض التشوهات التي على وجه الأمير، أخرج أحد الجنود الحديدة من النار، وأراد أن يضعها على وجه الرضيعة، فأسرع الأب وخطفها من يد أحد الجنود، ثم اخترق جموع الناس الذين تجمهروا في عين المكان، وهرب بها بعيدًا. لحقه الجنود، وانتزعوا من يده الرضيعة، ثم أخذوه إلى الساحة، قيدوه بسلاسل من حديد، ونفذوا مهمتهم، وشم الجندي المكلف بهذه الجريمة وجه الرضيعة بالحديدة الحامية، أما البقية من الجنود فكانوا يقومون بالحراسة تحسبًا لأي اعتراض من العائلة أو من الناس الذين تجمهروا في عين المكان. الملك كان قد أصدر مرسومًا: أن كل من يمنع الجنود من تأدية مهمتهم، من أحد الأبوين، أو العائلة، أو السكان، فعليهم قتله بدون رحمة.

الأم كانت تنظر من نافذة غرفتها، وبجانبها الخادمة، تمسكها خشية مغادرتها الغرفة لمنع الجنود من حرق وجه صغيرتها مما قد يؤدي ذلك إلى قتلها، كانت تصرخ بأعلى صوتها: اتركوا

ابنتي... اتركوا صغيرتي الجميلة.. لا تفعلوا ذلك.. أرجوكم... لكن صوتها لم يصل إلى أيّ جهة، ولم يؤثر في الجنود!

انتهى كل شيء بسرعة، ذهب الجنود كعادتهم بعد الانتهاء من فعلتهم الشنيعة، وعادت الصغيرة إلى حضن الأم. ولكن الرضيعة لم تكن تتنفس، فأغمي على الأم، وبعد لحظة صرخت الرضيعة من الألم الذي كانت تشعر به من شدة الحروق والجروح التي كانت على وجهها، واستعادت الأم وعيها على صوتها. أما الأب فقد ظل مكبلاً بالسلاسل في الساحة، في انتظار تنفيذ حكم الإعدام، لأنه خالف الأوامر، واعترض على تنفيذ قرارات الملك. لكن أصدقاء الأب جاءوا متسللين، حرروه، وهربوا به على حصان بعربة تشبه العربات التي يركبها الجنود.

وبعد أسابيع علم الأب أن ابنته قد تبناها الوزير، وأخذها إلى بيته مع أمها، لكن الأمَّ لم تتحمل كل ما حدث، وتركت ابنتها للوزير الذي عين لها مربية، وعادت إلى بيتها. وفي ليلة تسلل رجال من الثوار وأخذوا الأم إلى الجهة الشمالية. وهناك التقت بزوجها وابنتها ياقوت. ولكنها توفيت بعدها بأسابيع بسبب مرض أصابها. وعاد الأب متخفيًا، ومغيرًا اسمه من أجل الانتقام من الملك. والتحق بالجنود بعد أن أحرق جزءًا من وجهه حتى لا يتعرف عليه أحد، ووضع القناع مثل بقية السكان. ولكن الأب لم يتمكن من الدخول إلى القصر للانتقام

إلّا بعد أن توفي الملك، وأصبح الأمير حاكماً للجزيرة.

***

يحكي لي جواد تلك الحكاية، وأنا صامت، أسمع ما يقول، ويراودني سؤال عن الأب، وأسأله، فلا يجيبني، ويكمل قائلاً:

-ياقوت ستكون في مكانٍ آمن، وأنت ستكون رفيقها في ذاك المكان، فأنا لن أترككما، وسأسعى لإنقاذكما من هذه الجزيرة، ومن كل الشرور التي نبتت في صدر شمس.

سمعنا خشخشة قريبة منا، قمت واقفًا، مرتعبًا، وأنا أقول بصوت خافت:

- ها هم قد لاحقونا...

ويظل جواد مكانه ساكنًا، وهو يقول:

- اهدأ يا سليمان... هذا المكان بعيد عن عيون القصر، وعن الوزير الأول، إنه مكان الثوار.

أسأله في دهشة:

- مكان الثوار؟! كيف؟!

- هذا مكان الثوار الذين عادوا من الجهة الشمالية، لقد استقروا هنا بعد أن تولت شمس الحكم، وهذا المكان قريب من تلك الجهة التي كانوا فيها، فهم يترقبون الوضع، ما إن يحدث شيء ما سيرحلون إلى تلك الجهة، فشمس ليست أهلاً

للحكم، ولا أحد يعلم ما قد يحصل؛ لذا هم هنا، وهم في حالة ترقب ممّا يمكن أن يحصل...

قاطعته قائلاً:

- أنت من الثوار؟

- نعم.

ثم بعد صمت، نظر إليَّ قائلاً:

- تريد أن تعرف ماذا حلَّ بالأبّ؟

قلت:

- بلى، هل مات أم ما زال حيًّا؟

قام من مكانه، اقترب من النهر، رفع يديه إلى رأسه، خلع القناع، ووضعه على الأرض، حمل حفنة من الماء بين يديه، غسل وجهه، ثم التفت إليّ قائلاً:

- ها هو الأب!

صحت في دهشة قائلاً:

- أنت يا جواد؟!

ومع دهشتي، ظللت مذهولاً، أنظر إلى وجهه المحترق من إحدى الجهات، وأنا غير مدرك لما أرى، وحائر أمام رجل ظننته من الوهلة الأولى خادمًا وجنديًا من جنود الجزيرة، ليتبين لي الآن بعد هذه المدة أنه والد التوأمين، ياقوت الفتاة

المهذبة الجميلة، وشمس الأميرة والحاكمة على الجزيرة، صاحبة الوجه المحترق، وذات النفس الشريرة. هذا الأب ربما يتألم، لأن عليه أن يختار بين ابنتين، الأولى بريئة وهي أسيرة بين يدي أختها، والثانية أميرة، تسعى للسيطرة على كل شيء في الجزيرة، وأن تمتلك حرية السكان، وتسيطر على حياتهم.

عاد للجلوس بجانبي، يحدثني عن الحفل، ويوصيني بكيفية التعامل مع شمس عند مقابلتها، كنت متوترًا وأنا أستمع إلى ما يقوله، فهذا الرجل الذي يحدثني الآن ليس جواد الذي أعرفه، وإنما الأب، حتى صوته بدا لي غير مألوف، نبرته فيها لمسة حزن، هو يعرف أنه أمام خيار واحد، إما إنقاذ ياقوت، أو ترك شمس تفعل ما تشاء. وفي إنقاذ ياقوت يعرض شمس للنهاية التي لا يريدها أي أب لإحدى بناته.

٨

عليَّ أن أكون رجلاً وأواجه هذا المصير الذي لم أتوقع حدوث مثله بحياتي، وقفت أمام المرآة أنظر إلى وجهي الشاحب، ألامسه بيدي، بدا لي ملمسه خشنًا، هل شِخْتُ؟ لقد مرَّ على وجودي في هذه الجزيرة بضعة أيام، ومع ذلك أصبحت لا أعرفني، كل شيء فيّ قد تغير، حتى ملامحي بدت كأنها لرجل في الأربعين، مع أنني لم أتجاوز بعد الثلاثين. لم يعد الخوف يسيطر على ذاتي، كما في الأيام الأولى، ومع ذلك مُرتبك، متوتر. فهذا يوم الحفل، أقف حائرًا، لا أدري إن كنت أستطيع أن أواجه شمس وأقول لها كل ما أملاه عليَّ جواد، هل سأتذكر ما قاله لي؟ ربما نعم، وربما لا. لا أدَّعي أني بطيء في الفهم، ولكن الأمر صعب، فأنا لطالما كنت ذكيًّا وأستوعب بسرعة كل ما أسمعه، ولكن ما قاله جواد كثير، وصاياه كأنها وصايا قائد معركة، أو ربما أوامر قائد جيش يأمر جنوده، وعليهم تنفيذها حرفيًّا!

أشعر في هذه اللحظة كأنني ذاهب للحرب، وسأواجه عدوًّا شرسًّا، وبدون أي سلاح! أتذكر كلمات كان قد قالها لي عمي ذات يوم: «الرجولة يا بنيَّ هي أن تعرف أين تضع قدمك قبل أن تخطو في أي طريق تسلكه، أن تستيقظ من نوم اليقظة

وأن تسعى من أجل هدفك... أن تستند إلى الدعاء. لا تستسلم لمخاوفك، ولا تركض خلف أحلامك، وإنما سر إليها بتمهل، وكن حذرًا، فالخصم ينتظر لهفتك الأولى للانتصار، يترك لك الساحة، وعندما تطمئن إلى أن الخصم قد انهزم، وتحتفل بالنصر، ينقض عليك كما يفعل الأسد مع فريسته! لا تسمح لنفسك أن تقودك، وإنما قدها أنت، وسيطر على مشاعرك، ولا تدعها تهزمك».

كلام عمي كان مؤثرًا، من لم ينتصر على نفسه كيف له أن ينتصر على عدوه؟ وأنا كانت نفسي تقودني، وأنا خلفها ألهث! ها أنا في هذا المكان بسبب الركض خلف حلمي؟ لم أتمهل، تركت نفسي تقودني، وانهزمت في معركتي الأولى، ولا أدري كيف ستكون نهاية كل ما وصلت إليه...

لست بريئًا أبدًا، لقد شاركت في كل المعارك، غير أنني تركت السلاح مبكرًا، وبقيت مكاني أتفرج على هزائمي!

***

الكل يحتفل، القصر يعج بالزوار، والأميرة في غرفتها تجهز نفسها لاختيار رجل من بين الحاضرين في الحفل ليكون زوجًا لها وأميرًا للجزيرة - وأنا كنت واحدًا من هؤلاء -كنا جميعًا نرتدي ملابس موحدة، كلها باللون الأخضر، وكلنا بذات الأقنعة، من الصعب أن يتعرف على أي واحد منا، وكنت أنتظر

دوري، أن ينادي عليَّ الحراس لدخول جناح الأميرة لمقابلتها، ومرّ الوقت كأنه دهر، كل دقيقة تمرّ كأنها جزء من عمري يضيع مني، ماذا لو اختارتني؟ كيف لي أن أتصرف؟ ماذا لو أخطأت في الجواب وتلعثمت وفهمت أننا أنا وجواد نخطط لإنقاذ ياقوت والهروب خارج الجزيرة؟ وماذا؟ وماذا؟ كثيرة تلك الأسئلة التي كانت تدور في رأسي، فلا أرى ولا أسمع ما يدور حولي بسبب الضجيج الداخلي، ومن صخب الحفل الذي أقيم في القاعة الكبرى للقصر. الطبول تدق بحضور الوزير الأول، الذي بدا منتشيًا بالنصر، لقد صار مكان الأمير، وأصبح يتحكم في كل شيء. الجميع يُبجِّلونه، والجميع يلقون تحية خاصة برفع القبعات التي تعتلي رؤوس الحاضرين، وأنا لم أرفعها، ثم انتبهت أنه قد يتكهن أنني أخطط لأمر ما، وبسرعة رفعت القبعة، ثم انحنيت قليلاً مثل كل الحاضرين. جلس على كرسي الحكم، وتعالت التصفيقات.

جُلت بنظري في أرجاء القاعة بحثًا عن جواد، ولكنني لم أرَه، وخشيت أن يكونوا قد كشفوا خطته، واغتالوه. مشيت نحو طاولة وضعوا عليها ما لذّ من المأكولات وجميع أنواع المشروبات، أخذت كأس ماء تجرعتها، محاولاً إطفاء نار اشتعلت داخلي من القلق الذي انتابني. وسمعت اسمي من خلفي: سليمان... التفتُّ ناحية الصوت، فلم يظهر لي أحد،

وتخيلت بثينة تقترب مني، آتية من وسط الحاضرين، وتذكرت كيف أنني لم أكن أستطيع أن أرفع نظري إليها، كلما نظرت وشعرت بجاذبية تجذبني إليها، تأتي من الداخل كالمغناطيس، بسرعة كنت أخفض رأسي أو أشيح بنظري عنها. كنت حين أجلس أمامها على الأرض قرب صينية الطعام، كانت ابنتها الصغيرة تركض إليَّ وترتمي بين حضني وتناديني: بابا... تقترب منها لتأخذها قائلة: «تعالي يا ليلى، دعي عمك يأكل». تحاول أن تأخذها من حضني، فأمنعها برفق. يصلني عطرها، يلامس وجداني، أتوه بين أنفاسها، وأقول: دعيها يا بثينة... هي تعتبرني والدها وأنا أيضًا أشعر أنها قطعة مني. إنها ثمرة عمي الحبيب.

تبتعد عني، تسرق ابتسامة من تلك اللحظة. تكاد تتفتح وجنتاها كالزهر، تشرق معها ملامحها. ولكن تلك الابتسامة سرعان ما تغيب، كغروب شمس الربيع. فعمي بيننا، أراه يسكن عينيها، وابتسامتها، وكل نفس من أنفاسها. وينتابني شعور بأنها تحِنُّ إليه، ربما لأنه كان رجلاً رائعًا، يعرف كيف يعامل امرأة، صنع لها من قلبه روضة معطرة بالمسك، وبنى لها عالمًا من الحب والأمان بين ضلوعه؛ مما جعلها بعد رحيله تسرق الابتسامات والضحكات من أجل صغيرتها!

أمسكني أحدهم من يدي، يخرجني من حالة التخيل تلك قائلاً:

- أ أنت سليمان؟

انتبهت إليه، وقلت:

- أجل.

همس في أذني: إن الموعد قريب...

نظرت نحو المكان الذي رأيت فيه بثينة، فلم أجدها، ونظرت للرجل الذي كان بجانبي وقلت له:

- أين جواد؟

- إنه هناك...

وأشار إلى جهة بكأس كان في يده دون أن يثير أي شكوك، ونظرت نحو تلك الجهة، بدا لي واقفًا مع الحاضرين، يصافح هذا وذلك، ويمشي بينهم ثم بعدها اختفى، ولم أعد أراه. ثم عدت إلى الطاولة وأخذت عصيرًا باردًا، تجرعته دفعة واحدة، محاولاً إطفاء النار المشتعلة التي لا تخمد داخلي، والتخيلات التي بدت لي بسبب القلق. ثم التفتُّ مرة أخرى نحو المكان الذي بدت لي فيه بثينة، ورأيتها تبتسم لي وتسألني: لقد وعدتني بأن تعود، ولكنك أخلفت وعدك... وها هي النهاية... لقد انتهى كل شيء ولن تعود...

ورفعت صوتي قائلاً: لم أتخلَّ عنك يا بثينة، ولكن لاحقت حلمي، أنا آسف! سأحاول أن أعود...

وسمعني كل من كان بجانبي، وحدقوا بي، شعرت بالحرج، وسألني أحدهم:

- من بثينة؟

فقلت متلعثماً:

- لا أحد!

رمقني في استغراب، ثم ابتعد عني. أدركت في تلك اللحظة أن طيفها يسكن داخلي، صوتها يدغدغني، ورائحة عطرها وأنفاسها ما زالت معي، وكل شيء منها ظل عالقًا في ذاكرتي، وربما في قلبي!

هل أحببتها؟ أم أنني تعلقت بها؟ ولماذا أسأل إن كنا بعيدين، وكل واحد مِنّا في عالم آخر، وقد مضى على غيابي عنها خمس سنوات؟

***

ارتفعت أصوات الحاضرين بالتصفيق، وظهرت من بعيد الأميرة شمس، على رأسها تاج، ووجهها مقنع بقناع من حديد ألمس يبرق. استغربت أنها لا ترتدي قناع القردة. وتساءلت مع نفسي: هل بتصرفها هذا تريد أن تعلن للجميع أنها امرأة حديدية ومكانتها أعلى وكلمتها لا تقع أرضًا؟! ولكن هيهات. ألا تعلم أن شرها سيوقعها عما قريب في الهلاك؟ ومهما طال فلا بد له من زوال؟!

عندما دخلت القاعة دقت الطبول لفترة حتى وصلتْ إلى كرسيِّ الحكم الذي كان يجلس عليه الوزير. قام منحنيًا لها، جلست مكانه، بينما جلس هو على كرسيٍّ عن يمينها، وعن يسارها كان هناك كرسيٌّ شاغر، يبدو أنه للرجل الذي ستختاره الأميرة. سكتت الطبول لفترة، وأمر الوزير بأن يتقدم للأمام كل الرجال الذين حضروا من أجل التسابق على قلب الأميرة. وساد صمت كصمت القبور، لم تقل شيئًا. تمنيت لو تكشف عن وجهها لأرى ملامحها وعينيها اللتين لم تكونا باديتين في ذاك القناع. وخطب الوزير خطبة قصيرة، أشار فيها إلى أن الأميرة بعد قليل ستعود إلى جناحها، وهناك ستختار من بين الحاضرين من يكون الأمير. وبينما الوزير ما زال يتحدث، فجأة انطفأت الكهرباء. ولم أعد أرى شيئًا، وسمعت صوتًا خافتًا يقول: هيا بسرعة... ثم تعالت الصيحات، والهمهمات، تدافع الجميع، وقعتُ على الأرض، وبدأت أزحف على يدي وركبتي، محاولاً الابتعاد عن المتدافعين، ثم انزويت في ركن من القاعة، وبعد وقت عادت الكهرباء. وقفت مكاني، نظرت من حولي، كان أغلب الحاضرين قد اختفوا، وسأل الوزير عن شمس، فأجاب جواد الذي كان واقفًا بجانبي:

-إنها في غرفتها، أخذتها لترتاح... لا تخف، هي بخير.

وأمام دهشتي، وأنا أنظر إلى جواد الذي بدا لي مرتبكًا، يشد قبضة يده اليمنى تارة، وتارة أخرى يضغط بيده الأخرى على كتفه اليمنى، كأنَّ هناك ألمًا ما يشعر به، ويحاول التماسك أمام الوزير، حتى لا يكشف ما يخفيه. وغادر الوزير دون أن يقول شيئًا، ثم تبعه جواد، وبقيت مكاني وأنا لم أستوعب شيئًا مما يحدث، وبعدها بلحظات عاد الوزير يسأل عني:

- أين سليمان؟

توترت حين سمعت اسمي، وقلت:

- أنا هنا...

- تعالَ معي.

ذهبت معه رفقة بعض الحراس، ووقفنا عند جناح الأميرة، وقال لي:

- الأميرة تريدك.

ثم شدني من ذراعي بقوة قائلاً:

- أنت تحت المراقبة، أحسن التصرف!

ثم أبعد يده عني، فتح الباب، وأمرني بالدخول معه، وما إن دخلت رأيت الأميرة جالسة على كرسيّ فخم، وبعض الخادمات يحطن بها، طلبت منهن الانصراف، ثم أشارت لي بأن أقترب، نظرت إلى الوزير، فقال لي:

- هيا... اقترب...

ثم قال لها:

- شمس، سأبقى معك لأنني لا أثق بهذا الفتى!

- لا تخف يا أبي، يمكنك المغادرة الآن، سأكون بخير...

غادر الوزير. جلت بنظري في كل زاوية من الجناح، المزين بأرقى ما يمكن أن تتزين به غرف الأمراء والملوك، ووقفت ثابتًا في مكاني، كأنني في ساحة المعركة، أراقب ما قد يفعله الخصم وأنا على أهبة الاستعداد للمواجهة. وسألتني قائلة بصوت خشن:

- من أنت؟

- سليمان...

ضحكت في سخرية، ثم قالت:

- أعرف اسمك، ولكن ما أسأله هو: من يكون سليمان؟

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت:

- شاب كان له حلم، فعل كل شيء من أجل حلمه، وقاده حلمه إليكِ، مع أن الطريق الذي سار عليه في البداية، لم تكن هذه هي نهايته...

- يا لك من فيلسوف... إذًا حلمك هو من جاء بك إلينا، ترى ما هو هذا الحلم؟

- حلم بسيط، ولكن ثمنه كبير...

صمتت الأميرة لبرهة ثم قالت:

- هل تعلم لِمَ أنت هنا؟

- ربما نعم.

-جواد أخبرك بكل شيء، أليس كذلك؟

ارتبكت، وتساءلت مع نفسي: ترى ما الذي تقصده؟ أنا لم أتحدث مع جواد اليوم، كان متواجدًا في الحفل لبضع لحظات ثم غاب كأن الأرض انشقت وابتلعته. ثم ظهر فجأة الآن بعد عودة الكهرباء، أيعقل أن تكون قد كشفت كل ما يخططه؟ وبينما أنا أحدث نفسي قالت:

- ما زلت أنتظر جوابك.

- أجل، أخبرني جواد بكل شيء.

- إذًا انس حلمك الآن، إذا كان ما زال يراودك، واعلم أننا سنتزوج غدًا... لأنني اخترتك لتكون الحاكم الذي سيشاركني حكم هذه الجزيرة.

- كيف؟ لا... لن يحدث... أنا متزوج في وطني، وزوجتي في انتظاري.

ضحكت قائلة:

- ليس لديك وطن يا سليمان. وطنك الآن هو هذا المكان، أما بثينة فقد تزوجت بعدما علمت بموتك...

- لا، لم يحدث شيء مما تقولينه... أنت لا تعرفينها، ولا تعرفين شيئًا عن قريتي ولا عن المنطقة التي أتيت منها، المرأة في موطني تنتظر زوجها حتى آخر رمق، لا تستسلم للتكهنات! هي تدرك أنني ما زلت حيًّا.

قامت واقفة، ثم اقتربت مني قائلة:

- أرسلنا جاسوسًا إلى وطنك ليأتي لنا بالأخبار، لقد أعلنوا موتك، وعائلتك بعد أن يئست من عودتك، زوجوا بثينة بأحد أبناء عمومتك، سيقام الزفاف بعد أسبوع من الآن...

أحسست بضيق لم أشعر به من قبل، رئتاي كانتا تتقلصان، لم أستطع التنفس، أصبح الهواء شبه منعدم في المكان، أسرعت إلى الشرفة، خلعت القناع، رميته أرضًا، وضعت يديّ على حافة الشرفة، وأنا أحاول أخذ نفَس، استمر هذا الوضع للحظات. لحقت بي، وقفت بجانبي دون أن تقول شيئًا، ثم عادت إلى الداخل وأحضرت كوب ماء، سلمته لي، ارتشفت منه رشفات. أخذت نفسًا عميقًا ثم عدت إلى الداخل. كانت تراقبني دون أن تقول شيئًا، ثم سألتني قائلة:

- هل تحبها؟

أمسكت رأسي بكلتا يديَّ، من صداع راودني، أحاول فهم ما يحدث معي، ثم وضعت يدي على قَلبي الذي كان يخفق بسرعة، وسألته: هل تحبها؟ يجب على قلبي أن يجيبني حتى

أستطيع أن أجيب على من يسألني عنها. ولكن قلبي الذي كان يخفق بسرعة لم يُجبنِي، وفهمت أني من يتحتم عليه الإجابة عن هذا السؤال، وقلت:

- ربما نعم، وربما لا! لا أعرف شعوري الآن...

- لا تعرف حقًّا أم أنك تتجاهل مشاعرك؟!

-لا أتجاهل مشاعري، الحب رزق مثل كل الأرزاق، لا تعرفين متى يأتي ولا كيف يأتيكِ.

صمتُّ لبرهة ثم أردفت أسألها:

-هل حقًّا تزوجت؟

- قلت لك ما وصلنا من أخبار، لا أكذب عليك... والآن، انسَ الأمر، سيكون زواجنا غدًا.

ثم أشارت لي بمغادرة الغرفة، وتذكرت ما قاله لي جواد، والوصايا، وخطة الهروب، وأدركت أنني في ورطة، وأن بثينة قد استولت على كل تفكيري، وعليّ أن أخرجها من عقلي الآن، من أجل مهمة الهروب من هذه الجزيرة، ثم حين أعود إلى القرية، سأحل كل شيء، وسأقول لها: أنني ما زلت على قيد الحياة، وسأعيد كل شيء كما كان، وسأوقف زواجها من ابن عمي، فقلت لها:

- ماذا عن ياقوت؟ أين هي؟ ماذا فعلت بها؟

ضحكت في سخرية:

-تذكرتها الآن؟ ظننت أنها أول ما ستسألني عنه، ولكن...

قاطعتها قائلاً:

- ها أنا أسألك عنها الآن... أين هي؟

- غدًا ستعرف.

- أريد أن أعرف الآن.

- إنها في السجن، إذا كنت تريد تحريرها، عليك أن تتزوجني.

- لن يحدث ذلك.

- وياقوت ستظل في السجن، وأنت أيضًا ستذهب إلى السجن إن عارضت أوامري...

تذكرت وصية جواد، عليَّ أن أهدأ، وأتصرف بذكاء، كان قد قالي لي: وافق على كل ما تقوله لك الأميرة، ولكن قل لها إن زواجك منها مرتبط بأن تسمح لياقوت بالذهاب إلى الجهة الشمالية، وفي الطريق سيحررها الثوار، ويأخذونها إلى مكان آمن. وبعدها في الحفل، سآتي برجل يرتدي ذات الملابس التي سترتديها، وأضعه مكانك، ثم أنت ستذهب إلى النهر، وهناك ستجد الثوار، وهم سيأخذونك إلى الجهة الشمالية، وأنا سأتكفل بإخراجكما من الجزيرة.

هممت بالمغادرة، وتذكرت جواد وقلت لها متسائلاً:

- أين جواد؟ لم أره!

- إنه حيث يجب أن يكون، ولكن لَمَ تسأل؟ هو أحد رجالي، وأنت أصبحت كذلك...

استأذنتها، وفتحت الباب أَهُمّ بالخروج فقالت:

- أين قناعك؟

التفتُّ إليها، كانت تحدق بي بنظرات حادّة، أغلقت الباب، ثم توجهت إلى الشرفة، أخذت القناع، وضعته على وجهي، وغادرت.

٩

عـدت إلى الغرفـة، اسـتلقيت عـلى السريـر، أفكـر في الغـد، تقلبـت يمنـة ويـسرة. تذكـرت بثينـة، هـل حقًـا نسـيت كل مـا كان بيننـا؟ وتسـاءلت مـع نفـسي: هـل كان هنـاك شيء بيننـا؟ لا.. إذًا لمَ لا تنسـى؟ مـا الـذي قدمتـه لهـا حتـى تتذكـرني؟ أنـا وهـي لم نعـش سـوى أشـهر قليلـة مـع بعـض، كلهـا كانـت أيامًـا مـن الصمـت، بالـكاد تكلمنـا. قلبهـا كان يشـبه تربـة تحتـاج للـري لتُنبـت زهـرًا يعطـر أيـام عمرهـا، وقلبـي كانـت تسـكنه قضيـة، انتظـرتْ طويـلاً أن أخطـو إليهـا، ولكـن كنـت أشـيح بوجهـي عنهـا كـي لا تلتقـي عينـاي بعينيهـا فأنهـزم. قضيتـي الأولى كانـت في انتظـاري، وهـي لم تكـن قضيتـي! كانـت تنتابنـي مـن حـين إلى آخـر بعـض مشـاعر الكـره لعمـي، لأنـه أورثنـي أرملتـه الجميلـة، وطفلـة صغـيرة تلاحقنـي بكلمـة: بابـا.

كـدت أن أصرخ في وجههـا يومًـا، ولكـن كتمـت الصرخـة داخـلي، ثـم فتحـت البـاب أهـرع إلى الخـارج، وأنـا أردد مـع نفـسي: أنـا يـا بثينـة لـن أكـون لـك حبيبًـا يـواسي حزنـك لفقـدان زوجـك، أنـا لا أسـتطيع أن أظـل بجانبـك... أرى عمـي بالغرفـة وفي يـده البندقيـة يوجههـا إلى صـدري قائـلاً: «لقـد خنتنـي يـا سـليمان.. لم أطلـب منـك أن تتزوجهـا، قلـت لـك: اعتـنِ بهـا...». ولكـن عمـي

لا يعلم أن أفراد العائلة جميعًا اتفقوا ذات يوم على أن أتزوجك، وكنت الفتى الوحيد الذي وصل سن الزواج في عائلتي. هل فهمت يا بثينة ما أقول؟

وأمضيت وقتًا في الخارج، ثم عدت إلى الغرفة، وتوجهت إلى زاوية، حيث يوجد حصير ولحاف ألتحف به، ثم استلقيت كعادتي كل ليلة. وقبل يومين من مغادرتي القرية، جلست بجانبي على الحصير، كانت تغزل الصوف، وكان ما تغزله عبارة عن جوارب من الصوف للطفلة، ثم تركت ما كانت تفعل، ومدت يدها إلى قطعة قماش ملتفة، فتحتها وأخرجت منها كنزة صوف، وقالت إنها أنهت هذه الكنزة أمس، وقد صنعتها من أجلي. وطلبت مني أن أجربها. أخذتها منها، ارتديتها، ووقفت أمام المرآة، فقالت: إنها تلائمني. ابتسمت، وشكرتها. ثم قمت بخلعها، ووضعتها جانبًا. وحين جهزت ملابسي للرحيل، حملت الكنزة بين يديَّ، أنظر إليها، وأنا أتأمل لونها المميز، المائل للبني، الشبيه بلون تربة القرية، ثم تركتها على الكنبة. لم أشأ أن آخذ شيئًا يذكرني بها.

ولحقت حلمي، وتركت الكنزة الصّوفية، وكل شيء يمكنه أن يذكرني بها، ولكن، نسيت أن أتخلى عن ذاكرتي، وأتركها هناك في تلك الغرفة، بجانبها!

***

كانت ليلتي طويلة، واجهت حلمي، صارعته، صارعني، وأدركت متأخرًا أنني كنت ساذجًا، وربما متهورًا. لم أفهم حقًّا معنى الحياة. ما كان عليّ أن ألاحق ذاك الحلم، ما دمت لا أعرف التحليق في سماء دنيا الأحلام، لكن قلبي كان يخفق للحلم كفراشة خرجت من شرنقتها تحلق مسرعة في موعدها مع حديقة أزهار. تحطُّ على زهرة، ترتشف الرحيق، تتفاجأ بحرباء متخفية، تشطفها بلسانها، ثم تبتلعها دفعة واحدة، ها هو حلمي مثل تلك الفراشة، أخذوه لأنه لم يكن يدرك أن هناك مخاطر في ساحة المعركة! مثله مثل تلك الفراشة، لم تدرك أن الحديقة ليست مكانًا للأزهار والورود فقط، بل من المحتمل أن تكون هناك حرباء متخفية، كان عليها أن تدرك المخاطر ولا تسرع في الطيران، ولكن حلمها بالتحليق والحرية جعلها طُعماً سهلًا، فكانت تلك هي النهاية...

دعوت الله كثيرًا أن يأتيني نوم ثقيل ولا شيء يوقظني إلا شروق شمس يوم جديد، تشرق معه أمنياتي. أغلقت عينيَّ، ثم فتحتهما، وبعدها أغلقتهما حتى غفوت.

وفي صباح يوم جديد، كان كل شيء يسير بسرعة، لم أقابل جواد، ولا أحد سأل عني، وجبة الفطور أدخلها رجل إلى الغرفة دون أن يقول لي شيئًا، حتى التحية لم ينطق بها، ذكرني المشهد بأيام السجن، السجان كان يرمي لي بطبق الطعام على

الأرض، ثم بعدها يغلق الباب خلفه. ذات مرة لحقته إلى الباب، وصرخت في وجهه: هذا ليس طعامًا، إنه لا يصلح حتى للحيوانات! لم يلتفت، ولم يتحدث معي. الآن الطعام الذي يوضع أمامي، يحتوي على طبق لحم، وبعض الفواكه، وعصير... ومع ذلك أشعر أنني مقيد، وسجين، كما كنت في تلك الزنزانة. ما دامت حريتي مكبلة بقيود الأوامر التي عليَّ تنفيذها، فهذا المكان والسجن سواء، لأن حريتي مسلوبة.

قمت إلى الباب، فتحته، تفاجأت بثلاثة رجال واقفين بجانب الباب، مدججين بالسلاح، نظر إليَّ أحدهم بنظرات حادة كأنَّ له ثأرًا عندي، بسرعة تراجعت إلى الداخل وأغلقت الباب قبل أن يأمرني بذلك، ثم فتحها أحدهم ودخل قائلاً: «نحن هنا بأوامر من الوزير الأول، لن تغادر الغرفة إلا إلى القاعة للزواج...» ثم غادر وأغلق خلفه الباب.

في المساء ارتديت ملابس خاصة بعثتها الأميرة إليَّ، وتجهزت للمعركة، قلبي المهزوم داخلي، وعقلي المشتت، وروحي المعذبة من كثرة الندم. هل ندمت على ملاحقة حلمي؟ أن أكون محاربًا في ساحة المعركة، جنديًا يقاتل ببسالة من أجل الوطن؟ أجل، ندمت، لأن الحرب كانت قد انتهت، وما حدث لم يكن حربًا وإنما مناوشات كان من الممكن أن تحلّ بدون إراقة الدماء، وأنا كنت سأظل في القرية، أحقق حلماً آخر، لقد كانت لي هواية،

صناعة قطع أثرية من الطين، وكذا الرسم، كنت أرسم لوحات جميلة على الورق، وعلى جدران غرفتي، وغرف رفاقي حين يطلبون مني ذلك، لو استمررت في تلك الهواية، لأصبحت فنانًا، وأقمت معرضًا، وكان هذا الحلم البسيط الذي لم أُعِرْ له أي اهتمام، صار سيد أحلامي، وأصبح له وجود في أرض الواقع، ولكان الجميع عرفني، وخلد التاريخ اسمي، ولكن، دائماً ما يكون للإنسان أحلام جانبية كهذا الحلم، وحلم هو سيد الأحلام، والقائد العظيم الذي يسيطر على مخيلة صاحبه، ويدفعه لتحقيقه بأيّ ثمن، وها أنا الآن أدفع الثمن، ويا له من ثمن! حريتي التي سلبت مني لم تكن كافية، بل أرادوا أن أعيش في المنفى بين المنبوذين، أو أنتهي، ولكن أنا أرفض أن تكون هذه هي النهاية!

***

جاء الحراس إلى الغرفة، طلب مني أحدهم مرافقته إلى القاعة لعقد الزواج. مشينا بين ممرات القصر حتى كدنا أن نصل إلى القاعة الكبرى، وبينما الحارس يشير لي بأن أتقدم لدخول القاعة، نظرت من حولي، بدا لي هناك باب يوصل للحديقة، كنت قد رأيته من قبل، ركضت نحوه، ثم خرجت إلى الحديقة، وهربت. وأنا أركض كأنني في سباق، لحقني الحراس، لكنني كنت أسرع منهم. رأيت عربة، صعدت إليها متسللاً

خلسة حتى لا يراني صاحبها، ثم اختبأت داخلها. قمت بتغطية نفسي بمجموعة من الأقمشة التي كانت موجودة في العربة، كان صاحب العربة قد أحضرها للقصر من أجل الأميرة، ولكنها لم تعجبها، هذا ما فهمته من صاحب العربة، حيث قادها وهو غاضب ويتهكم، لأن الأميرة رفضت نوعية الأثواب التي أحضرها لها، واعتبرتها رديئة.

وحين عبر الباب الرئيسي لحديقة القصر، وصار خارج تلك الأسوار العالية، تنفست الصعداء، ثم استلقيت على ظهري تحت القماش، وأنا أتخيلني عائدًا إلى القرية، أضم أمي، وأضم أبي، وكل فرد من عائلتي، ثم أتوجه إلى الغرفة لأرى بثينة، وأتفاجأ بأنها زينت الغرفة بالورد، وعطّرتها بالمسك، وارتدت قفطانًا أخضر، وأرقى مجوهراتها، ثم أسدلت ضفائرها على كتفيها. وبدت كالقمر في طلعته! ثم أتوه في عينيها، وأغوص عميقًا، فأرى امرأة استثنائية، لم يشهد تاريخ قريتنا على وجود امرأة مثلها، جميلة، صبورة، تحفظ الودّ والعهد. لم تستسلم لرحيلي، لم تصدق أن رحيلي أبديٌّ، لم تدفن وجودي في صدرها مثلما فعلت مع عمي، فعمي مات شهيدًا، والأرض والأهل والوطن شهدوا بطولته، ونهايته المُشرِّفة، أما أنا فما زلت أتنفس، ما زلت فوق الأرض، ولم أنتهِ بعد!

أبحرت في تخيلاتي، وتساءلت مع نفسي: ماذا سأقول لها؟ وماذا سأقدم لها؟ ثم هل أحببتها؟ إنني ربما أتوهّم، ربما حين شعرت بالهزيمة، والضعف، والقهر، لأن ما سعيت له لم يتحقق، لا أنا انتصرت وصرت بطلاً، ولا أنا صرت شهيدًا كعمي، ولا أنا حافظت على ماء وجهي، وعدت إلى أرض الوطن بعد أن صدر العفو عني، أفكر بها، وأتخيلها.

هل أحببتها؟ هل أحببتها؟ هذا السؤال الذي يتبادر لذهني من حين لآخر لم أجد له جوابًا، وقد لا أجد له جوابًا! ربما أحببتها وأنا بعيد عنها، وربما أنا أشفق عليها لأنها وصية عمي، وربما أحن إليها لأنها تشبه كل شيء جميل عرفته قبل أن أصبح أسيرًا في السجن. أنا حائر حقًّا، وأشعر بهزيمة حقيقية أمام أفكاري. وبعد طول تفكير فهمت من صراعي مع نفسي أن الهزيمة هي أن تتخلى عن نفسك من أجل غيرك باسم الحب، أو باسم شيء آخر يقابل الحب! وأنا قررت ألّا أتخلى عن نفسي، وألّا أجعل الماضي يسيطر على تفكيري.

قمت جالسًا في مكاني، وأبعدت عني تلك الأقمشة، وقلت: لمْ أحبها، أجل، لمْ أحبها، توقف يا عقلي عن التفكير، أنا منزعج منك! ولمَ الآن تفكر في هذا الأمر؟ أجل لمَ الآن أحارب نفسي من أجل امرأة تركتها خلفي، وتركت كل شيء يذكرني بها، حتى تلك الكنزة الصوفية التي غزلتها من أجلي؟!

اختلست النظر إلى خارج العربة، وبدا لي المكان خاليًا من المارة، وأن الوقت مناسب للهروب، وفكرت في طريقة ليتوقف بها صاحب العربة لأقفز، حملت قطعة قماش، وأخرجتها من العربة وأنا أمسك بها دون أن أظهر يدي، وحين لمحها صاحب العربة، توقف، رميت بالقماش على الأرض، وبسرعة قفزت بخفة خارج العربة، وانطلقت متخفيًا بين جنبات العربة، وحين انحنى الرجل لأخذ القماش، ابتعدت عن المكان، ومشيت مستقيمًا كأي عابر سبيل يمر في الطريق. ولأن الليل مظلم، كان من الصعب أن يتعرف عليّ أحد. ويعرف من خلال الملابس التي كنت أرتديها أنني شخص مهم، لأن ملابسي كانت تشبه الملابس التي كان يرتديها الأمير.

وقفت أمام شجرة، خلعت السترة الحريرة التي كنت أرتديها، ودفنتها تحت الشجرة حتى لا يجدها الحراس أو أحد من السكان. ثم انطلقت بين الأشجار نحو النهر أركض بكل ما أوتيت من قوة. وحين وصلت كنت منهارًا من التعب، جلست تحت شجرة قرب النهر لبرهة، أخذت نفسًا عميقًا، ثم استلقيت على جنبي الأيمن، ومن فرط التعب غِطت في نوم عميق، لم يوقظني غير صوت أمعائي تنهشني من الداخل من شدة الجوع، فلم أكن قد تناولت شيئًا في النهار، باستثناء لقيمات في الفطور. اقتربت من النهر، شربت القليل من الماء،

ثم مشيت أجر قدميَّ بين الأشجار، وأنا مُنهَك القوى، نحو الجهة الشمالية، كنت آمل أن أجد القارب الذي قال لي عنه جواد، الذي خبأه بين الأحجار في كهف قريب من البحر، كان أمله أن نستقله أنا وياقوت ونغادر الجزيرة هربًا من شمس والوزير الأول، ولكن جواد وياقوت لا أعرف عنهما شيئًا. هل تخلصت منهما الأميرة؟ أم أنهما قد نجيا وهربا إلى الجهة الشمالية من دوني؟

فجأة سمعت حشرجة، اضطربت، أصابني الفزع من تحرك أوراق الأشجار، وقفت متسمّرًا أنظر ناحية الأشجار التي تبدو لي أوراقها تتحرك، ووسط تلك الأشجار، وفي الظلمة الحالكة، خرج غزال صغير يركض في اتجاهي، بقيت في مكاني أنظر إليه في ذهول، مرّ بجواري يركض بخفة، وفي لمح البصر ظهر لي نمر يركض خلفه، ارتبكت، التفتُّ للركض، وقعت أرضًا، ثم نهضت، هرعت في اتجاه مغاير للاتجاه الذي كان يلاحق النمر الغزال. وبينما أنا أركض سمعت صوتًا غريبًا خلفي، التفتُّ فإذ بي أرى النمر واقفًا في مكانه قريبًا مني، ينظر إليَّ بعينيه اللتين تشعان في ظلمة الليل، انتابني الذعر، وصرت أدعو الله أن ينجيني من فم النمر، الذي كنت أرى نواجذه الحادة، وقد فتح فمه استعدادًا للانقضاض على فريسته. أسرعت في الركض في اتجاهات مختلفة على شكل دائريّ حتى أضلله،

لكنه ظل يلاحقني، وكنت كلما التفتُّ خلفي، أرى لعابه يسيل وهو يسرع في القفز نحوي، فأنفلت من قفزته، وأركض يمينًا أو يسارًا هربًا من تلك القفزة المحكمة للانقضاض عليَّ. قفزت قفزة قوية نحو صخرة كبيرة للاختباء خلفها، ارتطمت رجلي بحجر، وقعت على الأرض، قفز النمر فوقي، ظننت أنها النهاية، النمر وأنا وجهًا لوجه، رأسه يلامس رأسي، وفمه قريب من رقبتي، وبينما أتعارك معه محاولاً شدّ عنقه بيديّ وبكل قوة حتى لا تصل أنيابه إلى رقبتي، أتى سهم من جهة ما أصاب النمر في عنقه، فنزل دمه على وجهي، وانهارت قواه، وبدأ يتراخى، ثم وقع فوقي. أبعدته عني، شعرت بارتياح لم يسبق لي الشعور بمثله من قبل، وتنفست بعمق ذاك الارتياح الذي تسرب رويدًا رويدًا داخلي وأنا أنظر إليه وهو مدرج بالدماء، وحمدت الله أنه أنجاني من فكه.

قمت من مكاني وأنا أنظر حولي بحثًا عمّن أطلق ذاك السهم لأشكره على إنقاذه حياتي، فلم أجد أحدًا، ثم انتابتني تلك الأفكار التي تهاجمني كل حين، مع أسئلة تلف حول رقبتي، أسألها مع نفسي: هل كان قراري صحيحًا حين تركت الحفل؟ هل كان قراري صحيحًا حين هربت دون أن أبحث عن جواد وأنقذ ياقوت؟ هل أخطأت في الهروب؟ هل أخلفت وعدي وتركت امرأة تتوقع مني أن أنقذها؟!

وبينما أنا أتمشى بخطوات متأنية، أنظر في كل اتجاه لعلي أرى الرجل الذي أنقذني، ظهرت فتاة بين الأشجار، لم تكن ملامحها بادية في الظلام، تقدمت نحوها، أحدق بها، بدت لي للوهلة الأولى أنني أعرفها، إنها ياقوت من دون قناع، أجل ياقوت، لا يمكنني أن أخطئ، وجهها مضيء كأنه القمر، وقلت في دهشة وبصوت عالٍ: أنت... ياقوت... كيف وصلت إلى هنا؟! وفي تلك اللحظة إذ بي أسمع صوتًا خافتًا خلفي يقول: توقف.. وقفت مكاني، ونظرت إلى ياقوت وهي تمسك القوس في استعداد لإطلاق السهم، وأردت أن التفت، لكن يدًا امتدت إلى كتفي، وأحسست بوخز في رقبتي، ثم وقعت على الأرض، ولم أعد أشعر بجسدي. نظرت إلى السماء المتلبدة بالنجوم، وسمعت همهمات وخطوات تقترب مني، شيئًا فشيئًا بدأت أفقد وعيي، ثم أغمضت عينيَّ ولم أعد أشعر بشيء مما يحدث حولي.

حين فتحت عينيَّ وجدت نفسي في غرفة مظلمة، وناديت بأعلى صوتي: ياقوت... ياقوت... أين أنت؟ ورددت الغرفة صدى الصوت، وانتبهت لفجوة صغيرة في الباب، حيث كان ضوء خافت يتسرب منها داخل الغرفة، قمت وأنا أحاول الوقوف على قدميَّ اللتين بالكاد تتحركان من ذاك الشيء الذي حقنوني به في رقبتي، وقفت وأنا أستند إلى الحائط، وصرت أجرُّ قدميَّ نحو الباب، ثم نظرت من تلك الفجوة، وظهرت لي

فتاة ترتدي القناع، مرتدية ذات الملابس التي كانت ترتديها ياقوت، مقيدة بالسلاسل بعمود حديدي على الجدار في زنزانة تقابل زنزانتي، ولكن تلك الزنزانة كان لها شباك، وكان يظهر من كان فيها بوضوح، فوجئت لحظة رؤيتها، تسارعت نبضات قلبي، وأنا أقول بأعلى صوتي: ياقوت أنت هنا؟ ياقوت... ما الذي فعلوه بك؟ هيا أجيبي... هل أنت بخير؟

لكن الفتاة لم تردّ رغم أنها سمعتني، كنت أسمع أنينًا خافتًا يأتي من زنزانتها، أنين المتألم من شيء ما، وقلت في نفسي: «لقد عذبها هؤلاء الأشرار، لقد قطعوا حبل صوتها كما وعدوا». تذكرت في تلك اللحظة ما قاله لي جواد ذات مرة: الأميرة كانت تريد أن تحرق وجه ياقوت، ولكن الأمير منعها، ووعدت بقطع لسانها، حتى تصبح بكماء، لا تستطيع النطق، ولا يسمع أحد صوتها العذب، وكلماتها...

وسمعت خطوات تقترب من زنزانتي، فابتعدت عن الباب، وجلست مستندًا رأسي إلى الحائط. فتح أحدهم الباب، وصرخ في وجهي: لمَ تنادي ياقوت؟ ماذا تريد منها؟ ابق صامتًا وإلا قطعنا لك صوتك! ثم أغلق الباب خلفه بقوة.

وظللت صامتًا، ثم مدّدت جسدي على الأرض أحدق بالسقف، وأفكر في تلك الخطة التي كان قد قالها لي جواد، أسأل نفسي: هل خرّبت الخطة؟! هل أخطأت في هروبي؟

مـا كان عـليَّ فعـل ذلـك، كان عـليَّ أن أحـضر الحفـل، ولكننـي اخـترت الهـرب وصرت الآن في هـذا المـكان، إنـه خطئـي!

***

هـا أنـا في زنزانـة مظلمـة مـرة أخـرى، كـما حـدث معـي قبـل خمـس سـنوات، ضـوء خافـت يتـسرب مـن الممـر تحـت البـاب، بعـد أن أغلـق الحـارس الفجـوة التـي كانـت بالبـاب، كان يفتـح البـاب كل مـرة مـن أجـل أن يسـلم لي طبـق طعـام وكأس مـاء، يناديني كلـما فتـح البـاب، أقـوم إليـه، آخـذ منـه طبـق الطعـام ثـم أعـود إلى مـكاني، مـر يومـان عـلى وجـودي في الزنزانـة، وفي صبـاح اليـوم الثالـث، حاولـت أن أفتـح تلـك الفجـوة بالملعقـة، كنـت قـد احتفظـت بهـا دون أن ينتبـه الحـارس لذلـك، ونظـرت إلى تلـك الزنزانـة المقابلـة، التـي بـدت لي فارغـة، أعـدت النظـر أكثـر مـن مـرة، ولكـن لم تظهـر لي ياقـوت. وحـين جـاء الحـارس بالطعـام سـألته عنهـا، فأخـبرني أنهـم قـد نقلوهـا لمـكان آخـر، وقـال لي إنهـم يخططـون لوضعهـا في بركـة التماسـيح. وأنـا أيضًـا قـد يفعلـون بي نفـس الـشيء. أصابتنـي قشـعريرة وأنـا أتخيـل أن الفتـاة الجميلـة سـتكون طعامًـا للتماسـيح، وجلسـت أفكـر في خطـة لإنقاذهـا، بعيـدًا عـن كل مـا قالـه لي جـواد، خطتـه لم تُجـدِ نفعًـا، كان قـد قـال لي: سـأنقذك في الحفـل وأخرجكـما مـن الجزيـرة، أنـا لم أحـضر الحفـل، وأفسـدت خطتـه، ولم ألتـق بـه، سـواء في القـصر ولا قـرب

النهر، ذلك الرجل اختفى، ماذا لو كشفوا أمره واغتالوه؟ من سيخرجني من هذا المستنقع؟ لا بد أن أفكر، وأضع خطة لا تفشل أبدًا.

تناولت الأكل وأنا مغمض العينين، وابتلعت اللقيمات بصعوبة، كان الأكل بلا مذاق، كأنهم مزجوا الرز بالتراب حين طبخوه، وقطعة السمك لم تكن مستوية. ولكنني أكلته لأنني كنت بحاجة إليه لأكون قويًا، كي أواجه هؤلاء الأشرار، لن أدعهم ينتصرون عليَّ ويتخلصون من ياقوت ثم يتخلصون مني. اليوم أكثر من أي وقت مضى عليَّ أن أكون قويًا، شجاعًا، جريئًا، من أجل أن أساعد الفتاة التي أنقذت حياتي من أنياب النمر، قلبي وعقلي وكل ذرة فيّ، ودعائي الذي لا يتوقف، هو قوتي الآن، وإيماني أن الله سينصرني في هذا المعركة هو سلاحي الأكبر، فلا نصر بدون إيمان أن النصر من عند الله، يهبه لمن يشاء!

١٠

صباح اليوم الرابع، كنت مستلقيًا على ظهري، أنتظر وجبة الفطور المتأخرة، وأنا أفكر في خطة للهرب، فتح أحدهم الباب بهدوء، قمت من مكاني واقفًا، وجهت نظري نحو الباب، لم يظهر لي أحد، تقدمت قليلاً، إذ بي أرى جواد يدخل الزنزانة، حين لمحته، انشرحت أساريري كلها، وأسرعت إليه لأضمه، لكنه أبعدني عنه ما إن وصلت إليه قائلاً:

- توقف...

ابتعدت عنه، ظهر الوزير الأول خلفه يقول:

- علمت أنك تريد إنقاذ ياقوت، إذا كنت تريد نجاتها، عليك الزواج بالأميرة...

نظرت إلى جواد، غمز لي دون أن يلفت نظر الوزير الأول قائلاً:

- تستطيع أن تفعلها يا سليمان، وإلا ستموت في بركة التماسيح...

ثم التفت إلى الوزير قائلاً:

- لقد علّمته الكثير من الأمور، هو أصبح منّا لولا تلك الغبية الصغيرة ياقوت، استولت على قلبه!

ابتسم الوزير الأول في سخرية وهو يقول:

- تلك الغبية ستصبح طعامًا للتماسيح أيضًا إذا لم ينفذ تلميذك أوامري يا جواد...

قال ذلك ثم أطلق ضحكة ساخرة، وضحك جواد أيضًا. انزعجت من تصرفه، مدّ يده نحوي، ضرب بكفه كتفي قائلاً:

- اهدأ أيها التلميذ النجيب، ستتزوج الأميرة، ومن يرفض زواجًا كهذا؟!

كياني كله كان يرفض، الكلمات في تصارع داخل حنجرتي تود أن تخرج، لكنني ابتلعتها دفعة واحدة وقلت:

- سأتزوج الأميرة، ولكن أريدك يا جواد أن تأخذ ياقوت للجهة الشمالية الآن، وأريد أن أرى ذلك بعيني...

ضحك الوزير الأول قائلاً:

- سنفعل ذلك أيها الأمير الجديد، هذه أوامر الأميرة، ما دمت ستتزوجها، فأنت في حمايتها!

ثم غادر الاثنان الغرفة، وجلست أفكر فيما أفعل بعد أن أحرر ياقوت من قيود الأميرة والوزير الأول، وتصبح في الجهة الشمالية حرّة. وتساءلت مع نفسي: كيف أحرر نفسي من هذا الزواج؟ كيف سأخلص نفسي من امرأة شريرة، مستعدة أن تلحق الأذى بالغير من أجل تحقيق رغباتها؟!

ومضى بعض الوقت، فُتِح الباب مرة أخرى، مد لي الحارس طبق طعام الفطور، ثم أغلق الباب خلفه.

***

جاء الموعد، أخذني الحراس خارج السجن، كانت هناك عربة تنتظرنا في الخارج، كان فيها حارسان، ركبت معهما وأنا مقيد اليدين والقدمين بالسلاسل، تحركت العربة، قلت لهما: إلى أين نحن ذاهبون؟ ردّ أحدهما: إلى الجهة الشمالية. نظرت إلى خارج العربة، ظهر لي جواد في العربة الأخرى التي تسبقنا، فقلت للحارسين: هل ياقوت موجودة في العربة الأخرى؟ ردّ أحدهما: نعم. وأعلنت الصمت، وخفضت رأسي، أنظر إلى السلاسل التي تقيد يديّ وقدميّ، وشعرت أن لا مفرّ من كل هذا، وأن عليَّ الاستسلام وقبول الأمر الواقع، ستنجو ياقوت، وأنا سأكون الثمن والفداء. الأب مخير بين ابنتيه، الآن سينقذ واحدة، الطيبة الرقيقة، والأخرى سيتركها حتى تنتهي بسبب شر أعمالها يومًا ما. الأب يضحي بكل شيء من أجل أولاده، ينقذ ياقوت، ولكن دون أن يضر بالأخرى رغم شرها. وتذكرت بثينة، قالت لي ذات يوم: إن زوجة عمي الكبرى تسألها عن مسيرة حياتنا؟ متى سيغرد عصفور في عشنا؟ متى يكون للصغيرة أخًا يملأ غرفتنا فرحًا وسرورًا، وصعقت مما سمعت، وقمت واقفًا، وقلت لها: كيف لها أن تقول شيئًا كهذا؟ أنا

لا أفكر في أن أكون أبًا، الأبوة ليست بالأمر الهيّن، لي أحلام أخرى، لكن لا تتضمن إنجاب طفل، فأنا ما زلت في نظري طفل، لكن أحلامي كبيرة، إنها أحلام الرجال! ومَدَّت يدها تمسك يدي، وضعت اليد الأخرى فوق يدي التي تمسكها بلطف، قائلة:

- ظننتك تريد أن تترك خلفك تاريخًا، التاريخ لا يكتبه الغرباء يا سليمان، وإنما يكتبه من يحمل اسمك، أو من هو من جلدتك!

سحبت يدي من بين يديها الناعمتين، قائلاً:

- التاريخ يكتبه المؤرخون، وسيكون هناك كثير من أبناء الوطن من الشرفاء ممن ستلهمهم قصتي وسيكتبون عنها...

- ولكن، ألا تريد أن يكون لك طفل؟

- لا. أخبري زوجة عمي، أننا لا نفكر الآن في إنجاب الأطفال.

-هي تعلم ذلك، لقد دخلت الغرفة في غيابي - حين زرت والديّ - واكتشفت أنك تنام في زاوية على الأرض، وسألتني الكثير من الأسئلة...

انزعجت من هذا الكلام، خرجت من الغرفة، وذهبت إلى أمي، أردت أن أشكو لها ما فعلته زوجة عمي، لكنني حين لمحت أمي، بدت لي غاضبة، وفهمت أن الجميع علم بكل

ما يجري في غرفتي. توجهت نحو الحقول، ثم جلست تحت شجرة أنتظر أن يحل الظلام وأعود إلى الغرفة. وحاولت كل ما بوسعي أن أبدو على طبيعتي حتى لا يكشف أمري، وابتعدت عن أولاد أعمامي حتى لا أسمع كلماتهم الساخرة، وأسئلتهم المكررة: هل ما زلت ترى عمَّنا؟! هل ما زال يهددك ببندقيته كل ليلة؟! أتجاهل تلك الأسئلة، والكلمات الساخرة، وأخبرهم أننا بخير، وكل شيء على ما يرام.

وأتساءل الآن: ماذا لو كان لديّ طفل؟ ماذا كنت سأفعل؟ لقد مضى على غيابي خمس سنوات، ابني سيكون عمره أربع سنوات وبضعة أشهر، وسأكون قد ظلمت نفسي، وظلمت ابني الذي تركته خلفي من أجل تحقيق حلمي.

رفعت رأسي ونظرت نحو العربة التي يركبها جواد وقلت: لو فعلتها لما كنت هنا، ربما منعني شعور الأبوة من ملاحقتي حلمي!

وصلنا إلى النهر، وقفت العربة، خرجتُ رفقة الحارسين، تقدمنا نحو العربة الأخرى، قال لي أحدهما وهو يشدني من ذراعي:

-لا تتحرك، ابق مكانك.

بقيت مكاني واقفًا لا أحرك ساكنًا، ورأيت جواد وهو يتقدم نحوي مع بعض الحراس، ما إن وصل حتى قال لي:

- سليمان، يمكنك العودة الآن، الرجال سيأخذونك للقصر، وأنا سأرافق ياقوت مع الحراس للجهة الشمالية...

قاطعته قائلاً:

- أريد أن أرى ياقوت...

تنحنح وهو يقول:

- إنها في العربة، وهي مقيدة بالسلاسل، يكفي أنني رأيتها...

- لا، أريد أن أراها قبل أن تأخذها للجهة الشمالية...

وقف جواد ينظر إليّ لبرهة، ملامحه كانت تشير لأمر يحاول أن يوصله لي بنظراته، لكنني لم أفهم تلك الإشارات، ثم قال:

- تعال معي...

ومشينا نحو العربة، والحارس يمسكني من ذراعي، بالكاد كنت أخطو نحو الأمام، بسبب السلاسل التي تقيد حركة قدمي، ثم وقفت أمام العربة، ورأيت ياقوت مستلقية على الكرسي. قال لي جواد:

- انظر! إنها نائمة، هي متعبة، والآن يمكنك الذهاب مع الحراس...

قلت له:

- أريد أن أراها بدون قناع، ماذا لو أنها ليست هي؟

اقترب مني، وهمس في أذني بكلمات لم أفهم معناها:

- أنت تريد أن نخسر هذه المعركة، إنك حقًا غبيّ! اذهب من هنا، سنتحدث لاحقًا.

ثم دفعني بيده أمام الحراس قائلاً:

- خذوه للقصر، وراقبوه جيداً حتى لا يهرب... هل فهمتم؟!

صحت قائلاً:

- ما الذي تقصده يا جواد؟

- ياقوت بخير، وأنت لن تكون بخير إن لم تنفذ أوامري...

ثم تقدم نحو العربة، ركبها ثم انطلق مخلفًا وراءه الغبار.

***

عدت إلى غرفتي في القصر، خلعوا القيود من يديَّ، أما السلاسل التي على قدميَّ فلم يفكوها، ظلت تقيد حركتي، قال لي أحد الحراس: إنهم سيحررونني بعد الزواج. وقلت له ساخرًا: القيود التي ستقيدني بعد الزواج أكبر من هذه السلاسل!

وقفت أمام المرآة، أنظر إلى وجهي الذي لم أعد أعرفه بعد أن تعوّد على الخفاء تحت القناع، أتذكر كل لحظة من لحظات يوم زواجي ببثينة، أتخيلها أمامي، تلومني لأنني سأتزوج امرأة أخرى، في مكان آخر من هذا العالم وهي تنتظرني بفارغ الصبر. صورتها تأبى الرحيل من ذاكرتي، تأبى أن تُمحَى ذكراها من كل اللحظات التي أعيشها في غيابها.

أشعر أنها قد خطّت خريطة أيامنا التي عشناها مع بعض على ملامحي، أراها في عينيَّ المعكوستين على المرآة، ابتسامتها،

نظراتها، صمتها، كلماتها... ونبرة صوتها تسكن طبلة أذني، كلما مرّ شريط الذكريات أمامي يوقظ الماضي من داخل ذاكرتي.

أعدت القناع إلى وجهي، بعد أن كنت قد خلعته من أجل الاستحمام وارتداء الملابس. ثم رافقت الحراس إلى القاعة لعقد الزواج.

وقفت بجانب الأميرة، لم تقل شيئًا، ولا أنا قلت شيئًا، كان الصمت يخيم على القاعة، الحاضرون من الجنود والعاملين تحت إمرة الأميرة والوزير الأول، الجميع ينظرون إلينا في صمت، كأننا في مأتم، والميت مجهول، وما إن تم الزواج تعالت التصفيقات والتهاني. ثم أمسكتني الأميرة من يدي، ومشينا نحو شرفة تطل على الساحة العامة، حيث كان هناك الكثير من السكان ينتظرون خروج الأميرة معلنة زواجها بالأمير الجديد للجزيرة. ألقت التحية، وأشارت بيدها للجميع، ونظرت إليَّ قائلة:

- الق التحية أيها الأمير...

ألقيت التحية، وأشرت بيدي مثل ما فعلت هي، صفق لنا السكان، تعالت التهاني والتبريكات، وألقى البعض منهم الورود نحونا، أمسك الوزير الأول وردة، وقدمها لي قائلاً: سلمها للأميرة... وسلمت الوردة لها، فاقتربت مني، وهمست في أذني، وشعرت بقشعريرة لم يسبق لي أن شعرت بها، خفق قلبي، وابتسمت ابتسامة أشرقت معها ملامحي كلها، وحمدت

الله عـلى ذاك القنـاع الـذي أخفـى تلـك التعابـير التـي كانـت واضحـة كالشـمس لحظـة شروقهـا. وودت حقًـا أن أمسـك يدهـا وأشـدها بقـوة، وأقـول لهـا: إنـك امـرأة اسـتثنائية! وأرى أنـك تشـبهين بثينـة في صمودهـا...

انتبهت لي فقالت للوزير الأول:

-يكفي هذا، غدًا نقوم بجولة في الجزيرة...

تحـرك الوزيـر مـن مكانـه، ودخـل بيننـا، وهـو يمسـك الأمـيرة مـن كتفهـا قائـلاً:

- ابنتي، لقد انتصرنا!

- نعم انتصرنا.

قالـت ذلـك، ثـم أشـارت إلى السـكان بيدهـا تودعهـم، أمسـكت يـدي ورفعتهـا عاليًـا، معلنـة النـصر، وتحقيـق رغبتهـا بالـزواج بمـن اختـاره قلبهـا، هـذا مـا خطـر عـلى بـالي، نبضـات قلبهـا لهـا رسـائل، وقـد وصلنـي معنـى ذاك الشـعور! ثـم انطلقنـا نتمشـى بـين ممـرات القـصر، متوجهـين إلى جناحهـا، رفقـة الوزيـر الأول والحـراس، وكلماتهـا التـي همسـت لي بهـا مـا زالـت تـرن في أذني. وظللـت صامتًـا، كان الصمـت هـو سـلاحي، لأن الكلـمات يمكنهـا أن تكشـف مـا بداخـلي. جوارحـي كلهـا كانـت تنطـق، لـو كان هنـاك مـن يفهـم لغـة الجسـد، لقـال: إنـني أحلـق في سـماء السـعادة، كعصفـور صغـير تعلـم الطـيران، تـرك عشـه لأول مـرة وحلـق

بجناحيه نحو الأفق، لأنني حققت نصرًا في ساحة حرب غير معلنة! نصرًا على مصيري، وعلى هؤلاء الأشرار الذين يريدون أن أكون لعبة يستخدمونها من أجل أن يحققوا رغباتهم، ولكن هيهات، لقد وقعوا في الفخ، وانهزموا جميعًا!

***

دخلنا جناح الأميرة، كنت أنتظر بفارغ الصبر أن أجد فرصة لأسألها: هل حقًا ما همست لي به صحيح؟! لكنَّ الأميرة تركتني في الجناح، وغادرت رفقة الوزير الأول لحضور اجتماع طارئ للوزراء، قالت: إنها لن تتأخر... وأن هذا الاجتماع له علاقة بالوضع الجديد للجزيرة بعد زواجنا. وبقيت وحدي، أمشي ذهابًا وإيابًا في الغرفة، وأنا أجُرُّ السلاسل التي تكبل قدميَّ، وأصارع تلك الأفكار التي تهاجمني، ماذا لو أن كل ما قالته لي هو مجرد كذبة؟ ماذا لو كشفت أن جواد هو والدها فكذبت عليَّ من أجل أن أستسلم لها وترضخ مشاعري فلا أنتفض في وجهها، وأظهر غضبي، ويرى ذلك شعبها؟

جلست على السرير، خلعت القناع، وقلت في نفسي: حين تعود سأطلب منها دليلاً على ما همست به، ستخلع القناع وأرى وجهها، وسأعلم إن كانت صادقة أم كاذبة! ولكن لا أحد يعلم أن جواد هو والد التوأمين غير ياقوت وأنا وجدهما، والجد قد مات، والأب لم يعترف بذلك سوى لي أنا، وياقوت

لا أظن أنها ستكشف هذا السرّ لأحد، إذًا لا يمكن أن تكون الأميرة سوى ياقوت كما همست لي!

استلقيت على ظهري، وأغمضت عينيَّ، وأنا أستمع لذاك الهمس الذي ظل في أذني، يدغدغ مشاعري،» سليمان، أنا ياقوت، وجواد أبي، وأنت بطلي!» وغفوت على ذاك الهمس. وبين النوم واليقظة، أحسست أن أحدًا ما كان واقفًا أمامي، نظرت إليه شبه مغمض العينين، لم ألمح وجهه، كان يقول لي: ماذا تفعل هنا يا سليمان؟ لمَ تخليت عن وعدك بالعودة لبثينة؟ وقلت له: أنا لم أفعل... وفتحت عينيَّ أنظر في كل اتجاه، فإذ بي لا أرى أحدًا في الغرفة، قمت إلى طاولة صغيرة عليها جرة ماء، شربت القليل من الماء، ثم عدت إلى مكاني أراقب الباب، مشاعري المختلطة - بين ياقوت وبثينة - جعلت مني رجلاً يحارب أفكاره التي تهاجمه كل حين، تُذكِّره بأن هناك امرأة في بيت العائلة تنتظره، وعليه العودة للوفاء بوعده. وأتذكر كلمات الأميرة، حين قالت: إن بثينة ستتزوج ابن عمي في هذا الأسبوع، لقد مرت أربعة أيام على ذلك اليوم الذي تحدثنا فيه، ولم يبقَ سوى ثلاثة أيام لانتهاء هذا الأسبوع، هل يمكنني أن أعود إلى القرية وأنقذها من زواج آخر قد لا تكون تريده؟! وأخبرها أنني لم أخلف بوعدي، حين قلت لها: سأعود... ولكن الأمر لم يكن بيدي، فلا تلوميني على الغياب، والآن،

أحـرركِ منـي، أنـت حـرّة الآن، اذهبـي حيـث تشـائين، عـودي لبيـت والديـك. خـذي ابنتـك معـك، وحتـى قطعـة الأرض التـي ورثتهـا مـن عمـي، إذا أمكنـك أخذهـا فافعـلي! سـيقول أعمامـي: ما هـذا الـكلام الـذي تقولـه يـا سـليمان؟ هـل جننـت؟ كيـف تأخـذ الأرض؟ وسـأردّ بـكل ثقـة: سـلموا لهـا ثمنهـا، واتركـوا أرضكم في مكانهـا! وسـأقف بجانبـك، وأحمـل كل أمتعتـك، وأسـاعدك عـلى مغـادرة القريـة بهـدوء، ثـم أعيـدك إلى بيـت عائلتـك، وهنـاك يـا بثينـة، سـتجدين السـلام، وسـتودعين عمـي في صمـت، سـتنتزعين ذكـراه مـن قلبـك، وسـيختفي طيفـه عـن ناظريـك، وسـيتناثر عطـره مـع الأيـام، ولـن يبقـى منـه شيء عالـق فيـك يذكـرك بـه كل حـين! وستسـألينني عنـي أنـا، مـا مصـيري بعـدك؟ وسـآخذ نفسًـا عميقًـا مـن ذكرياتنـا وأقـول لـك: أنـا لم أكـن موجـودًا يومًـا، مجـرد عابـر سـبيل قـضى شـهورًا في غرفتـك، شـاركتك طعـام الفطـور والعشـاء، وأحيانًـا وجبـة الغـداء، التـي كنـت في الغالـب أتناولهـا مـع الرجـال في الحقـول! وقلنـا بعـض الكلـمات العابـرة، التـي لا أتذكـر منهـا سـوى القليـل...

وفي لحظـات التفكـير، طُـرِق البـاب بخفـة، ثـم انفتـح، دخـل جـواد، تقـدم إليّ قائـلاً:

ـ لا تخف، أنت في أمان...

هرعت إليه، ضممته إلى صدري، شعرت كأنني أضم أبي. راودتني تلك المشاعر التي كانت تراودني فيما مضى رفقة أبي. ابتعدت عنه، نزع القناع، نظرت إليه كأنني أول مرة أراه بدون قناع - مع أن ذلك حدث سابقًا بجانب النهر -كان هناك شبه كبير بينه وبين ياقوت، وقلت له:

- إنها تشبهك...

- من؟

- ياقوت...

ابتسم، ثم قال وفي صوته نبرة من الحزن:

- إنهما تشبهان بعضهما، لكنَّ قلبيهما مختلفان، قلب ياقوت حديقة زهر وورد، وقلب شمس بركان حام!

جلسنا على كنبة وقال لي وهو يُربّت على كتفي:

- سليمان، ياقوت في عهدتك، لا تترك يدها وسط الطريق، أنتما في سفينة واحدة، إن غرقت ستغرقان معًا!

كنت أريد أن أعده بأني لن أتخلى عنها، سأكون لها السماء والأرض، والبحر والبرّ، والوطن والبيت، وسأخبئها بين رموش عينيَّ، حتى إذا أراد أحد الاقتراب لإيذائها، سأغمض عينيَّ فلا يراها! ولكني أطبقت صامتًا، أستمع لحديثه عن شمس، وعن الأمير، دون أن أقول شيئًا. كان يتحدث عن نهاية الأمير على يد شمس والوزير الأول، وكنت أتساءل مع نفسي:

كيف للقسوة أن تسكن القلوب؟ كيف تصبح تلك القلوب بلا رحمة كأنها جماد لا يشعر؟!

لقد انتهت حياة الأمير بعد زواجه، قضى شهورًا وهو مكتئب، يراقب ياقوت من بعيد، وشمس تلاحقه بالتهديدات، من أنها ستقضي على ياقوت إن لم يبعدها عن طريقها، فأصبحت ياقوت أسيرة في غرفتها، لا تخرج إلّا قليلاً، وأحيانًا تذهب إلى الحديقة ليلاً، وحين يعلم الأمير بذلك، يطل من الشرفة يراقبها من بعيد. وذات يوم، أحضر الوزير شرابًا، وأصبح يضع له كل مرة قطرات منه في الطعام، فلم يعد يستطيع أن يقوم من مكانه، وظل على تلك الحال شهورًا قبل أن يفارق الحياة. وتولت شمس الحكم، لكن في قانون الجزيرة لا يمكن أن تحكم المرأة وحدها، عليها الزواج لتظل في الحكم، أو تتنازل لمن يختاره الوزراء من أبناء الجزيرة ليصبح حاكماً.

وبينما جواد يحكي لي الحكاية، سألته بصوت خافت: كيف بدل ياقوت مكان شمس؟

نظر إليّ في حزن وقال:

- تلك حكاية أخرى، وذلك ألم آخر... سأقصها لك هنا لأن الغرفة ليس فيها جهاز تنصت...

في ذلك اليوم الذي شهد ذلك الاحتفال العظيم، وحين انقطعت الكهرباء، أسرع بعض الحراس من أصدقائي بإخراج

ياقـوت مـن زنزانـة كانـت قـد احتجـزت فيهـا، وأحضروهـا إلى غرفـة الأمـيرة، أخفوهـا عـن الأنظـار في الغرفـة، ثـم قامـت الخادمـة بوضـع شراب للأمـيرة بعـد انتهـاء الحفـل، حـين تناولتـه أغمـي عليهـا. بعدهـا قامـت الخادمـة بمسـاعدة ياقـوت عـلى تبديـل ملابسـها، ولمـا نـام الجميـع، تـم إعـادة الأسـيرة إلى الزنزانـة دون أن يشـعر بقيـة الحـراس بذلـك، لأنهـم هـم أيضًـا كانـوا نائمـين بسـبب الأكل الـذي تناولـوه، ولم يعـرف أحـد أن مـن كانـت في تلـك الزنزانـة هـي شـمس، لقـد تـم تخديرهـا ولم تكـن تسـتطيع الشـعور بـما يحـدث، ولكـن الوزيـر الأول، رجـل شريـر، أمـر الحـراس بقطـع لسـانها، إذا أزعجـت الحـراس في السـجن. حـين اسـتفاقت وصـارت تـصرخ وتخبرهـم أنهـا الأمـيرة، وأن هـذا ليـس مكانهـا، وأنهـا سـتنتقم منهـم جميعًـا، قـام رئيـس الحـرس بتخديرهـا مـرة أخـرى، وقطـع لسـانها، وحـين علمـتُ بذلـك أسرعـت لإنقاذهـا، ولكـن كان الوقـت قـد فـات، وتألمـت لحالهـا. أعلـم أنها لـو خرجت مـن تلـك الزنزانـة سـتقتل ياقـوت، وتقتلنـي وكل الحـراس الذيـن شـاركوا في تبديلهـا مـكان ياقـوت، ولكـن مـع ذلـك، تمنيت لـو أنني وصلـت في الوقـت المناسـب لأنقذهـا ممـا حـدث لهـا. والآن شـمس في الجزيـرة، مـع الخادمـة وبعـض رجـال الثـوار الذيـن كانـوا معـي في الجهـة الشـمالية، إنهـم يعتنـون بهـا، ويقومـون بحراسـتها حتـى لا تهـرب، ولكـن هـي تعدهـم بأنهـا سـتنتقم منهـم، ولـن يظـل منهـم أحـد...

صمت جواد لبرهة، وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- فعلت كل ما بوسعي لأنقذهما معًا، ولكن ربما لم أنجح... الوزير الأول سرعان ما سيكتشف الأمر، إذا طلب من الأميرة أن تكشف عن وجهها، فإنه سينقلب على ياقوت، وستحدث معركة ضارية في القصر بين الثوار المتسللين بين الحرس، وبين جنود الوزير...

- نحن لن نظل هنا، سنرحل عن الجزيرة، أليس كذلك؟

- وماذا عن الثوار؟ إنهم يحتاجون إلى قائد، هم يريدون أن يحرروا الجزيرة من بطش الوزير وجنوده...

- ولكن لا يمكنني أن أكون القائد لهم، أنت تصلح أكثر مني لهذه المهمة...

- لقد كبرت يا سليمان... أنت ما زلت شابًا، عليك أن تقود تحرير الناس من قيود الشر والجهل، وجبروت هذا الوزير...

- لن أظل هنا، سأرحل إلى موطني...

- ماذا عن ياقوت؟

- ستذهب معي إذا أرادت ذلك، أليس هذا ما اتفقنا عليه سابقًا؟

- لقد تغير الوضع الآن...

- كيف؟

- ياقوت أصبحت الأميرة، لا يمكنها أن تترك الجزيرة، وتترك شعبًا يحتاج إلى من يرشدهم ويخرجهم من ظلمة عهد قديم... وأنت ستساعدها في ذلك...

نظرت إليه نظرة طويلة دون أن أقول شيئًا، ووضعت جانبًا كلمات كانت تخطر على بالي، أردت أن أقولها، ولكن سكتُّ حتى لا أدخل في جدال معه وهو اتخذ قراره، يريدني أن أبقى أسيرًا في القصر، أحمل لقب أمير يرشد أهل الجزيرة إلى الطريق المستقيم، ويخرجهم من ظلمات اعتادوا العيش فيها، ورضوا بها!

أريد الرحيل من هنا، أجل، أريد الرحيل، هذا ليس مكاني، هذا ليس موطني، لا أريد أن تكون نهاية قصتي حياة بين أصحاب الأقنعة، وجوه ظلت لأعوام مختبئة خلف قناع القردة، تتصرف على طريقتهم، وتحيا مقلدة ما يفعله سيدهم!

لا أستطيع أن أعِد جواد بأنني سأكون رفيقًا لياقوت طول العمر، ياقوت الجميلة شيء منها تسلل إليَّ، تشكل على هيئة بذرة من الزهر، بدأت تنمو شيئًا فشيئًا داخلي، أشعر بتفتح أوراقها وعبيرها يعبر دمي! ولكن لا أستطيع أن أكون مقيدًا بهذا الشعور، وأترك خلفي موطني، وعائلتي، وبثينة التي ما زالت تنتظر عودتي...

١١

عـادت ياقـوت إلى الجنـاح، واجتمعنـا نحـن الثلاثـة، قـرارات جـواد لم تعجبنِـي، أنـا لـن أظـل هنـا في الجزيـرة سـوى يـوم أو يومـين، وفي الثالـث يجـب أن أكـون في القريـة، أريـد أن أحـرر بثينـة منـي ومـن زواج آخـر، أعـرف أن الجميـع يعتقـدون أنني رحلـت عـن هـذا العـالم، ولكـن حـين يروننـي، سـيوقفون هـذا الـزواج، وأخبرهـم بـكل مـا حـدث، وسـيغفرون لي كل هـذا الغيـاب، ثـم بعدهـا سـأقرر مـاذا أفعـل. هـل سـأعود لهـذا الجزيـرة لأحـرر النـاس مـن الظلـمات التـي يعيشـون فيهـا، ظلـمات القهـر والظلـم، والخضـوع؟ لا أدري، أحتـاج لفسـحة مـن الحريـة، هنـاك في موطني، بـين الأشـجار والأزهـار والجبـال في قريتـي، سـأقرر أيـن سـأكون ومـا قـد أفعـل... الآن، مـا زلـت مقيـدًا بالخـوف، وزواج، وسـلطة، وامـرأة أشـعر أنهـا سـطّرت حـروف اسـمها في قلبـي!

وغـادر جـواد، وظللنـا نحـن الاثنـين، وتركنـا أقنعتنـا، وكلماتنـا، وارتمينـا في حضـن الصمـت، ورأيـت في عينيهـا العـالم، وقلبـي الـذي كان يخفـق طربًـا، وغصـت عميقًـا ولم أعـد أعرفنـي، دمـي وقلبـي وروحـي اتحـدوا جميعًـا، ولغـة جديـدة كانـت ترددهـا كل ذرة منـي، لم أفهـم معانيهـا، تشـدني نحوهـا. وغبـت ولم أسـتيقظ إلا مـع شروق الشـمس وأنـا نائـم في حضـن وسـادة عـلى الأرض!

فتحت عينيَّ، نظرت من حولي، كانت هناك فوق السرير كالملاك، نائمة بدون قناع، وجهها بدا لي قمرًا في وضح النهار، كان مخبئًا في قناع قبيح، لا يرى النور ولا الشمس، ولا تلامسه نفحة هواء. جلست مكاني أراقبها، أنتظر أن تشرق ملامحها مع ابتسامتها حين تراني بجانبها. ومرّ الوقت بسرعة، فتحت عينيها، نظرت إليَّ في دهشة، وقامت جالسة وهي مرتبكة تسأل:

- متى استيقظتَ؟!

شعرت باستحيائها من نظراتي، فقلت:

- الآن...

بدا الارتياح على وجهها قائلة:

- الحمد لله! ظننتك استيقظت مبكرًا... أنا لا أحب أن يراقبني أحد وأنا نائمة...

- لستُ أي أحد يا ياقوت... نحن متزوجان، أليس كذلك؟!

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقد تورد وجهها قائلة:

- أعلم ذلك، ولكن لا تنسَ أنني الأميرة... ويجب أن تتعامل معي على هذا الأساس...

أردت أن أقول لها: لا تعلمين يا ياقوت أنك أصبحت أميرة قلبي، استوطنت بين ضلوعه وأقمت فيه مملكة زهر، وإن سألتني: متى حدث ذلك؟ أقول لك: لا أدري! ربما اليوم،

أو أمس، أو قبل الأمس، أو في يوم آخر... لكني ابتلعت تلك الكلمات، تركتها تتحول إلى أهازيج يرددها قلبي.

قامت من السرير، مدت يدها إلى القناع الذي كان بالقرب منها، وضعته على وجهها، ثم نظرت إليَّ قائلة:

- متى تريد الرحيل؟

- غدا إن شاء الله... هل سترافقينني؟

- لا يمكنني أن أترك الجزيرة الآن...

- ولكن هذا ما كنا اتفقنا عليه...

- هذا حين كنت ياقوت، أما الآن، فأنا الأميرة شمس، لا يمكنني ترك مكاني حتى أجد حلًّا... لو بإمكاني أن يجلس أبي على كرسي الحكم، أو أي رجل حكيم، ثم أغادر هذه الجزيرة معك، ولكن هذا غير ممكن، لأن الوزير سيعترض، وسيعرف الحقيقة، ويمكنه أن يتخلص من أبي...

ثم نظرت إليَّ قائلة:

- تريد العودة إليها، أليس كذلك؟

- من؟ بثينة؟!

-نعم، بثينة.

- لا، لا أريد العودة سوى إلى أمي، وأبي وإخوتي، وقريتي، أما بثينة...

قاطعتني قائلة:

- وبثينة، أليست زوجتك؟

- نعم.

- إذن عد إليها، سأساعدك من أجل العبور إلى الضفة الأخرى حيث بثينة وعائلتك...

- ماذا عن جواد؟

-سأقنعه بمساعدتك...

قامت واقفة، وقمت أيضًا، ولحقتها مشاعري كلها، تمنيت أن أحرر لساني وأنطق، وأقول لها إنها شيء يخصني، ولا أريد أن أتركه خلفي هنا، أريدها معي في موطني، فقلبي لا يطاوعه أن يسلك طريقًا من دونها، وأن يعبر الحدود تاركًا جزءًا من روحي عالقًا في جزيرة. تشجعت وقلتها بصوت خافت يشبه الهمس:

-أريدك معي، فأنت أصبحت جزءًا مني...

التفتتْ قائلة:

- ماذا قلت؟ لم أسمعك جيدًا...

ارتبكتُ، تمنيت أن أعيد تلك الكلمات، ولكن جبني كان أقوى مني، وقلت:

- أتمنى أن تحققي مبتغاك، ثم تلتحقي بي...

ابتسمت ابتسامة خفيفة، رأيت جزءًا منها خلف ذاك القناع الذي يغطي وجهها الجميل، ثم مشت نحو الشرفة، لحقتها، نظرت إلى الخارج، ثم التفتت إليَّ قائلة:

- لا تترك قناعك، لا تنسَ أنه قانون الجزيرة، ولكن سأغيره يومًا ما...

وعدت إلى داخل الغرفة، أخذت القناع، وضعته على وجهي، وجلست على السرير، أفكر في كل ما وصلت إليه، هل حقًا سأتحرر وأعود إلى وطني؟ هل حقًا سأرى أمي وأبي وكل عائلتي؟ هل سأترك خلفي قلبي وجزءًا مني وأرحل؟!

***

مرَّ الوقت بسرعة، وأنا أرافق ياقوت في جولة في الجزيرة، الناس يتجمهرون حولنا، يباركون لنا الزواج، يتمنون لنا السعادة، وأن نبني جسور المحبة في كل جزء من الجزيرة، وأن نسعى من أجل عهد جديد، ليس فيه للظلم وجود، ندفنه مع الماضي، كي يتحرر الجميع منه ومن كل قيد ورثته الجزيرة من العهد القديم. وبينما نحن نسير، كان الوزير الأول يراقبني من بعيد، لاحظت تعابير الشك في نظراته، لا بد أنه يسأل: كيف لي أن أتقبل هذا الزواج بكل سهولة، أمشي وأنا أمسك يد الأميرة وأهمس لها من حين لآخر، لأذكرها أنها الأميرة، وأن عليها أن تتصرف كما كانت تتصرف شمس، لكن ياقوت

كانت رقيقة، تعامل الناس بلطف، وترفض أن تبعد عنها من يود الحديث معها، وتهنئتها. ضغطتُ بيدي على يدها، التفتت إليَّ قائلة:

- هل من خطب ما؟

همست في أذنها:

- الوزير يراقبني... بسرعة علينا العودة إلى القصر...

سحبت يدها من يدي بلطف، قائلة:

- لم يبقَ سوى القليل، علينا أن نزور السوق لأرى كيف هي حال التجار...

تقدمنا نحو العربة، ركبنا، جلست بجوارها، والوزير جلس قبالتي، كان يحدق بي بنظرات حادة، خشيت أن يكشف أمري، فانحنيت برأسي نحو الأرض، وفاجأني بسؤال قائلاً:

- هل أحببت دور الأمير يا سليمان؟

نظرت إلى ياقوت نظرة خاطفة، ثم وجهت نظري نحوه قائلاً:

- لا.

حرك حاجبيه، وسألني في دهشة:

- كيف؟!

- لا أحب لعب الأدوار، فقط أحب أن أكون في المكان الذي يليق بي، وهذا مكاني أيها الوزير الأول!

شعرت بتجهم وجهه خلف القناع وهو يقول:

- وياقوت؟

- ياقوت في مكانها، هي اختارت أين تكون...

قلت ذلك وأنا أنظر في عينيه، شعرت بشرارة نار ملتهبة تكاد تخرج من عينيه نحوي، ابتسمت في سخرية، ثم أشحت بنظري نحو النافذة، أنظر إلى السائرين في كل اتجاه، غير مبال بما قد يفعله وهو في تلك الحال، بعد أن تحليت ببعض الشجاعة، وكسرت حاجز الخوف الذي انتابني. أمسكت ياقوت يدي تقول:

- أبي، إنه زوجي الآن، ويدي اليمنى، لا تغضب منه...

قال بنبرة غاضبة:

- وماذا عني أنا يا شمس؟ ألم أعد يدك اليمنى؟

-أنت كل شيء في الجزيرة يا أبي... أنت الوزير الأول، أنت القائد، وأنت أبي!

حين ذاك شعرت بأن الغضب الذي كان قد تملكه قد نفض غباره عنه ورحل، وشرارة النار المشتعلة في عينيه قد انطفأت.

***

ها أنا الآن سأغادر الجزيرة، لا أظن أنني سأعود إليها يومًا، لا شيء هنا يخصني غير جزء من روحي وقلبي، الأميرة

ياقوت، ربما أعود لأحررها، وربما لن أعود أبدًا، وأنسى أنني كنت هنا، وسيتحرر قلبي وروحي مع الأيام، ويلحقان بي يومًا! أشعر بأن مشاعري ستتبرأ مني يومًا، أطوف حولها دون أن أتخذ قرارًا، يساعدها في إقامة مدينتها في مكان ما في هذا الوجود! لست رجلاً مترددًا ولكن ما حدث معي جعلني أخشى من اتخاذ قرار ترسو عليه سفينتي، فأظل أقودها وسط أمواج الحياة، أبحث لها عن مرفأ آمن تستقر عليه يومًا حين أصبح جاهزًا للاستقرار، ولكن ما زلت لم أصل لتلك النهاية، ومشاعري ما زالت تقذف بها الأمواج!

أمام النهر وقفت أودعها، تقدمت نحوها، خلعت القناع عن وجهها، أردت أن تكون هذه آخر صورة أراها، لم أرد أن تترسخ في عيني صورة القناع الحديدي الذي كان يغطي وجهها الجميل. وقفنا ننظر إلى بعضنا في صمت، الكلمات اغتالتها مشاعرنا، ولم يعد لصوتنا صدى كي يوصل تلك الكلمات التي كانت تزهر فينا، وودعتها، دون أن أقول شيئًا، ودعتها بابتسامة، ومشيت نحو العربة التي كانت تبعد عنا مسافة، حيث كان فيها بعض الحراس ممن يثق بهم جواد، وقبل أن أصل إلى العربة، التفتُّ، نظرت إليها، رأيتها تمسح دمعة انسكبت على وجنتيها، فعدت إليها مسرعًا، اقتربت منها، فقالت:

- لمَ عدت؟ ارحل بسرعة قبل أن أغير رأيي وأعيدك إلى القصر...

ابتعدت عنها قائلاً:

- تعالي معي...

وأمسكت يدها ومشينا خطوتين، وأبعدت يدها عني، ثم حملت القناع الموضوع فوق شالها على الأرض، وغطت وجهها الجميل. أخذتُ شالها، أردت الاحتفاظ به، لكنها سحبته من يدي، ومشت مبتعدة عني، لحقتها قائلاً:

- ياقوت، تعالي معي، أريدك معي...

- ارحل... بسرعة ارحل يا سليمان...

- ياقوت، أحتاجك معي! تعالي ولنبدأ عهدًا جديدًا من حياتنا في مكان ما من هذا العالم...

- لا يمكنني الآن.

- لِمَ؟

- هناك من ينتظرك، هم أولى بك... إذا كان لي مكان في قلبك فاذهب الآن، وتعالى إليَّ حين تحل أمورك، ستجدني في انتظارك...

ثم ابتعدت، اقتربت من العربة الأخرى التي كان عليها بعض الحراس، ركبت، أشارت بيدها لي مودعة، وانطلقت العربة مسرعة، مخلفة خلفها الغبار. ومشيت أجرّ قدميَّ نحو العربة، قلبي يخفق خفقات الحزن، يرفرف كأنه ذاهب إلى عالم

لا ينتمي إليه، عالم ليس فيه هواء، ولا سلام! أدركت أن العالم الذي ينتمي إليه المرء ليس أرضًا، ولا بيتًا، ولا قصرًا، ولكن قلوب محبيه، ذاك عالمه الحقيقي!

انطلقت العربة في اتجاهها، عبرنا النهر فوق جسر صغير كان قد أنشأه الثوار، ووصلنا إلى الجهة الشمالية، هناك التقيت بشمس، كانت محتجزة في كهف، مقيدة بسلاسل في قدميها. وجهها من دون قناع، نظرت إليَّ وصاحت، كأنها تقول شيئًا، ومررت بجانبها رفقة جواد، وذهبنا نحو القارب الذي كان على حافة الشاطئ القريب من الكهف. قال لي:

- الآن سترحل يا سليمان... ولكن قبل ذلك ستعدني بأنك ستعود بعد ثلاثة أيام...

قلت مستغربًا:

- ثلاثة أيام!

- لقد قلت لك، لن ترحل من هذه الجزيرة إلا إذا غادرت معك ياقوت، ولكن هي لن تذهب معك الآن؛ لذا ستعود من أجلها...

- ولكن لا أستطيع، ثلاثة أيام أحتاجها للذهاب إلى القرية، وبعدها لا أعلم ما قد يحدث...

- لن تذهب قبل أن تعدني بالعودة بعد ثلاثة أيام، ما كنت لأتركك تذهب لولا ياقوت، هي من سمح لك بالذهاب...

-جـواد، لا يمكننـي أن أعـدك بالعـودة بعـد ثلاثـة أيـام، يمكـن أن أقـول لـك، أننـي سـأعود مـن أجـل ياقـوت... وليـس أنـا مـن سـيعود، ولكـن قلبـي...

قاطعني قائلاً:

- كيف؟ قلبك!

- نعـم، قلبـي يـا جـواد، قلبـي أصبـح قطعـة مـن هـذا المـكان لأن ياقــوت هنا!

ووعدتـه بالعـودة، أقسـمت عـشر مـرّات بأننـي سـأعود، وربـما أكثـر مـن عـشر مـرّات، كنـت أكـرر القسـم ولا أدري لِمَ؟ هـو قسـم واحـد كان يكفـي، لكـنَّ قلبـي أرادني أن أكـرر القسـم وكلماتـه حتـى أحفظهـا عـن ظهـر قلـب، فـلا أنسـى الوعـد، ولا أسـمح لـشيء يثنينـي عـن العـودة مـن أجلهـا، لكـنَّ عقـلي كان يسـألني: ومـاذا بعدهـا؟ حـين تعـود هـل تسـتطيع أن تحيـا هنـا؟ ثـم لـو غادرتمـا الجزيـرة، فـما المـكان الـذي يمكـن أن يجمعكـما لبنـاء بيـت وتأسـيس عائلـة فيه؟!كنـت أمسـك بتلـك الكلـمات والأفـكار التـي تـراود عقـلي وأرمـي بهـا في أعـماق البحـر.

أخـذت نفسًـا عميقًا، ثـم أدرت المحـرك، وأشرت بيـدي إلى جواد مودعًـا، وابتعـدت عـن الجزيـرة. شـيئًا فشـيئًا لم أعـد أراه، وبـدت لي مـن بعيـد جبـال وطنـي، هنـاك أنـا الآخـر، أراني بوضـوح، حـين كنـت أحلـم أن أصبـح جنديًـا، أحـارب الاسـتعمار، أقاتـل ببسـالة،

أنتصر وأعود إلى قريتي حرًّا ومعي شهادة من ساحة المعركة، ندوب على وجهي، وصدري، وذراعي العاريتين، وأنا أصيح أنادي أمي: ها أنا عدت، عدت يا أمي منتصرًا، ثم أنزل بركبتي على الأرض، أقبل قدميها، ثم أسرع إلى صدرها وأضمها إليَّ بقوة، أتنفس عبق حبها، وعطرها، وحنانها، وأقبلها دون توقف، وأسمع صوت أبي فأهرع إليه أضمه، وأقبل مكان الجرح الذي عاد به من آخر معركة شارك فيها ضد المستعمر.

أصبحت كالأبله، أفكر في الماضي، فيما كان وما لم يكن، يراودني الحنين إلى تلك الغرفة، بثينة وصغيرتها، بثينة وعطرها، وابتسامتها، وطيف عمي في الغرفة، يقيم في كل زاوية منها. صورته تسكن عينَيْ بثينة، كلما حاولت النظر في عينيها، كنت أراه واقفًا بيننا، يحدق بي وهو يوجه البندقية لقلبي!

التفتُّ خلفي، تذكرت ياقوت، فهمس قلبي: لقد تركتها خلفك، تركت تلك الوردة الجميلة وحدها، تركت حبيبة قلبك! كم أنت جبان، في كل معاركك لم تنتصر ولم تنهزم، تترك المعركة في منتصفها وترحل!

أقود القارب بسرعة، أبتسم وألوح بيدي للشاطئ البعيد حين ظهر لي. خلف الشاطئ جبال شاهقة، وأشجار سامقة، أقترب شيئًا فشيئًا منه، وأستعيد هويتي، ووطني الذي سلب مني، وفرحتي وسعادتي من أن أضم أمي، وأبي، وكل فرد من عائلتي.

اقتربت من الشاطئ، أوقفت القارب، ارتميت على الرمال، سجدت لله أنني أخيرًا في وطني، وعلى أرضٍ ظننت أنني لن أدوسها يومًا، وحمدت الله أني صرت حرًّا.

مشيت بين الأشجار طويلًا، حتى بدا لي طريق، فسرت عليه دون توقف، وبعد مدة، رأيت شاحنة كبيرة تحمل على متنها بضائع، أشرت إلى صاحبها، توقف، سألته عن اسم المنطقة، فأخبرني باسمها، كانت منطقة في الجنوب. أصابني الوهن، شعرت بالعجز، وخارت قواي، وأنا أسأل نفسي بصوت عالٍ: كيف لي أن أصل إلى القرية، المسافة بعيدة بين الجنوب والشمال، عليَّ عبور مدن وقرى كثيرة حتى أصل إليها. وتأسف السائق لحالي، وعرض عليّ المساعدة، شكرته على لطفه، وطلبت منه أن يوصلني إلى أقرب نقطة يمكنني أن أقل حافلة توصلني إلى أقرب مدينة حيث توجد قريتي بالشمال. وسألني السائق عن سبب وجودي في المنطقة، أردت أن أخبره بقصتي، أن أحدثه ولو قليلاً عن كل ما مررت به، أن أفضفض له بمكنون قلبي، وأنفض غبار الغربة، والقهر، والظلم، وأزيل عن كاهلي ثقل تلك الأيام، ولكن خشيت أن يشي بي للسلطات، فيلاحقوني ويضعوني في السجن مرّة أخرى. فقلت له: إنني عابر سبيل... نظر إليّ مبتسمًا وهو يقول: كلنا عابرون في هذه الدنيا... ثم انطلق في اتجاهه.

***

نزلت من الشاحنة، شكرت صاحبها، ابتسم وهو يمدّ لي بقطع نقدية، اعتذرت منه بلطف، ولم آخذها رغم إصراره، كانت عندي بعض القطع النقدية، سلمها لي جواد، قال إنها ستساعدني في رحلتي. مشيت بين الطرقات، مُتبعًا إرشادات السائق، حتى وصلت إلى محطة الحافلات. استقللت حافلة متوجهة إلى المدينة بالشمال.

حين وصلت ركبت في سيارة تقل الركاب نحو القرى المجاورة للمدينة، ومن بين تلك القرى قريتي. كان الركاب ينظرون إليَّ بنظرات استغراب، وكانوا يتهامسون فيما بينهم حين ذكرت اسم القرية، وحين بدت القرية من بعيد، سألني رجل عجوز، كان يجلس بالمقعد المجاور لي:

- هل أنت من قرية الصبار؟

أجبته إجابة طفولية، كأن الطفل الذي يسكنني هو من يتحدث:

- أجل. قرية الصبار قريتي، وهي قرية أبي وأمي...

طأطأ رأسه، ونظر نحو القرية التي بدت شاحبة، وكأن حربًا مرّت من هناك، وقال:

- منذ متى زرت القرية؟

- لم أزرها مطلقًا منذ أن غادرتها، قبل خمس سنوات من الآن.

نظر إليَّ الرجل وقال:

- مدة طويلة... أعانك الله يا بنيَّ!

لم أفهم قصده، أردت أن أسأله، ولكن القرية بدت لي قريبة، وقد فتحت ذراعيها لعناقي، ابتسمت، تسلل الحنين إلى داخلي، وددت لو كنت عصفورًا أخرج من نافذة السيارة، أحلق نحو الحقول، ثم اتجه إلى بيتنا، لأضم أمي، وأبي، وكل أحبابي. وأضم كل شيء في قريتي، قرية الصبار، الصبورة، الجميلة بأهلها، وأشجارها وحقولها، ووديانها، سميت بهذا الاسم، لأنها كانت مشهورة بنبتة الصبار، لقد اشتقت لتناول حبة من الصبار، وهذا فصل الصيف، وهو موسم الفاكهة، تذكرت أمي حين كانت تقطفها، وتنظفها من الشوك، قبل أن تقوم بغسلها وتقشيرها لنا، حين كنت طفلاً وحتى حين كبرت، كانت دائماً تحب أن تضع لنا طبقًا من الفاكهة بعد تقشيرها فوق الطاولة وتنادينا، فكنا نجتمع مع أبي من أجل تناولها، وأمي تحدثنا عن شوك دخل في أصبعها، تحاول إزالته منذ وقت دون جدوى، فيقوم أبي بمساعدتها، ويزيل الشوك من أصبعها، ولا نرتاح إلا حين تخبرنا أمي، أن أصبعها لم يعد يؤلمها.

نظرت من النافذة أحدق بالصبار، وهو سامق، وقد تزين بالكرات الصغيرة من التين الشوكي. ربّت الرجل العجوز بيده على كتفي قائلاً:

- لقد وصلنا قريتك، ألن تنزل؟

انتبهت إلى أن القرية بدت خالية، أكثر المنازل مهدمة، والحقول مجرد قفار، كأن الحياة لم يكن لها وجود هنا من قبل، وقلت:

- هل وصلنا؟ لكن هذه ليست قريتي...

قال السائق:

- أليست قرية الصبار قريتك؟

أجبته:

- بلى.

- إذًا هذه هي...

قلت في دهشة:

- لا يمكن، أين هي البيوت؟! بيت عائلتي وبيوت سكان القرية؟!

- لم تعد موجودة...

- كيف؟! ماذا تقصد؟

- حدث زلزال، وتهدمت جميع المنازل...

- يا الله! وأمي وأبي... أين هما؟

- كيف لنا أن نعلم؟ اذهب واسأل، ما زال هناك بعض السكان الذين نجوا من الزلزال...

ركضت نحو القرية، مررت بالحقول والمنازل المهدمة حتى وصلت إلى حقول عائلتي، وظهر لي بيتنا، وبيت جدي، لقد هويا على الأرض، لم يبق منهما شيء سوى آثار تُذكّر العابر من هناك أن حياة ما كانت هنا، حياة أناس لم يعد لهم وجود سوى ذكرى في قلوب أحبتهم، وصرخت بأعلى صوتي، وناديت على أمي، وأبي، وإخوتي، وبثينة وصغيرتها... وبكيت بكاء القلب، وتساءلت هل رحلوا؟ هل ماتوا؟ هل أصبحت يتيماً بدون أمي وأبي؟ هل عدت لأرى نهاية عائلتي في غيابي؟ هل أنا أتخيل؟ هل هذا كابوس أراه في منامي؟

ارتفع صوتي، ووصل صداه إلى الجبال، وهرع رجلان كانا يرعيان الغنم، مرّا بالقرب من المكان، سألني أحدهما عن سبب صرختي، وعجز لساني عن الكلام، ووقعت أرضًا على ركبتيَّ وأنا أقول:

- هل هذه نهاية كل شيء؟ هل حقًّا ما أراه حقيقيّ؟ فليجبني أحد أن ما أراه ليس حقيقيًّا!

قال أحد الرجلين:

- يا بنيَّ اصبر، هذا قضاء وقدر... لقد فقدنا نحن أيضًا أحبابًا لنا في الزلزال...

وجلست على الأرض، أمسكت رأسي بكلتا يديَّ، وظللت وقتًا أنزف ألماً. أنزف في صمت تارة، وتارة أعلنها علنًا،

أصيح وأنا أرفع رأسي إلى السماء، ربي إني أتوجع، فهل من دواء ليوقف هذا الألم؟!

ثم مسحت دمع عيني، ودمع القلب من يمسحه؟ أنينه لا يسمع، وأضلعي قد كسرها الألم!

وقمت أجرُّ خيبتي، والحزن قد اصطادني، أصبحت فريسته. وحملت حجرًا من بيتنا، أضمه إلى صدري، أبحث عن شيء يذكرني بأمي، وأبي، وإخوتي، ومشيت بين آثار الهدم، فلم أجد سوى حجارة لا تتكلم ولا تشعر، أسألها عمن كانوا هنا: ما آخر كلماتهم؟ هل تألموا؟ هل سألوا عني؟ هل ذكروا اسمي؟ هل كنت جزءًا من حديثهم في غيابي؟

ووقع الحجر الذي كنت أضمه من يدي، يدي التي ما زالت تهتز من هول الخبر، وقلبي المحترق من نهاية لم أتوقعها لأحبتي. وجاء رجل من خلفي يقول لي:

- هناك من نجا من هذه العائلة... إنهم بالمدينة...

التفتُّ إليه، وقد عاد الأمل يداعب قلبي، وأسأله في عجل:

- من نجا؟! أمي، أبي... بثينة...

- لا أدري، لكن سأخبرك بعنوان، وأنت اذهب إلى هناك وستعرف من نجا منهم...

أملى عليَّ عنوانًا بالمدينة، وأسرعت إلى المنطقة التي نزلت فيها، هناك تمرّ بعض السيارات التي تنقل السكان إلى المدن،

وبعد برهة مرت من هناك إحداها، ركبت وأنا أحارب الأفكار التي كانت تغتال سعادتي، تلك الأفكار التي تخبرني بألّا آملَ كثيرًا، فقد لا يكون هناك ناجٍ سوى أحد أبناء أعمامي، أو أحد آخر غير أمي وأبي... وصرختُ في وجه تلك الأفكار المشؤومة، ومددت برأسي على النافذة، أحاول أن أتخيل أنني بين حضن أمي، تداعب خصلات شعري بأصابعها، وأبي يحضنني، وهو يخبرني، أنه كان يتوقع عودتي، وسأكون هنا معه مرّة أخرى، يحدثني عن بطولاته في ساحة المعركة، كيف أسقط جنودًا من جيش المستعمر بطلقة واحدة من بارود بندقيته. وأنا أبتسم في دهشة مما أسمع...

١٢

وقفت أمام بوابة بيت كبير، له حديقة تشبه حدائق الملوك، نظرت من شباك البوابة، ظهر حارس البوابة يسألني: «ماذا تريد؟» أخبرته أنني أحد أقارب صاحب هذا البيت، فتح لي البوابة، وأشار إلى شاب يعمل في الحديقة، أن يرافقني إلى باب البيت. رافقني الشاب دون أن يسألني من أكون، وأنا بدوري لم أحدثه. وحين وصلنا، طرق الباب، فتحت الخادمة، ابتسمت في وجه الشاب، ثم تنحت جانبًا. رافقت الشاب إلى الصالون، وهو يقول لي: «تفضل بالجلوس، سيأتي السيد لرؤيتك» ثم غادر، جلست على الكرسي، انتابني شعور غريب، شيء ما في هذا البيت يخصني، رائحة عطره تشبه عطر أمي، وبعض لمساته أيضًا. تساءلت مع نفسي: من يكون هذا السيد؟ وأين عائلتي؟ عائلتي ليست غنية حتى يكون لها بيت بهذا الحجم بالمدينة، بيت يشبه قصر الأميرة بالجزيرة. قمت واقفًا أنظر إلى اللوحات التي تزين الصالون، إحداها كنت قد رسمتها منذ زمن بعيد، وأهديتها لصديقي. في ذلك الوقت كنت أرسم اللوحات وأهديها لأصدقائي وأقاربي، لأن الرسم كان مجرد هواية، أمارسها من حين لآخر، ولم أحلم يومًا بأن أحتفظ بلوحاتي وأقيم لها معرضًا. وبينما أحدق باللوحة، سمعت حركة

أقـدام، التفـتُّ، تـراءى أمامـي صديقـي، وقفـت مـكاني أنظـر إليـه في ذهـول:

- صديقي... عمر... عمر...

كنـت أظـن أن عمـر قـد مـات في المعركـة، أو أنـه في سـجن مـا، ولكـن هنـا، وفي بيـت كالقـصر، وبلبـاس كلبـاس الأمـراء، لا، هـذا كثـير عـليَّ، هـذا زلـزال آخـر يضربنـي هـذا اليـوم، زلـزال ضرب منطقتـي، عائلتـي رحلـت، صديقـي سـيدٌ غنـيٌّ! أريـد أن يـشرح لي أحـد هـذا وبسرعـة، قلبـي يخفـق، نبضاتـه أسـمعها، تـكاد أن تتشـكل إلى شيء مـا يشـبه قنبلـة سـتنفجر داخـلي!

تقدم صديقي إليَّ، أخذ يضمني قائلاً:

- كنت أعلم أنك ستأتي...

ابتعدت عنه وأنا أسأله في دهشة:

- كنت تعلم؟ ماذا تعلم؟

- أنك ستنجو، وستعود إلى وطنك يا سليمان...

- هل عرفت كل ما حدث لي؟

- الـكل يعلـم، قصتـك انتـشرت، كتبـوا عنهـا في الصحـف، الجميـع تألمـوا لمصـيرك، الـكل يعلـم أنـك بـريء، كانـوا سـيطلقون سراحـك، ولكـن حـدث خطـأ حـين أرسـلوك مـع الآخريـن إلى تلـك الجزيـرة...

رميت بجسدي على أقرب كرسي كان بجواري، وأنا أحرك رأسي في حالة ذهول:

- الجميع يعلمون أنني بريء، والجميع يعلمون أنني كنت في جزيرة... لا أصدق، ولا أفهم...

تقدم نحوي، ونزل بركبتيه بالقرب مني، أمسكني من ذراعي وهو يقول:

- القائد لم يمت يا سليمان، القائد الذي أطلقت عليه النار نجا، الرصاصة أصابت صدره، ولكن لم تصل قلبه...

- الحمد لله أنه نجا...

تنفست الصعداء، ثم سألته:

-أتقصد أنني الآن سأعيش حرًّا، ولن يضعوني في السجن مرة أخرى لأنني هربت من الجزيرة؟

- نعم، أنت حرّ يا سليمان!

- وأمي، وأبي، وبثينة، وكل عائلتي أين هم؟

- للأسف يا سليمان لم ينجُ منهم سوى أمك وبثينة وبعض أولاد عمومتك...

ونهضت من مكاني حين سمعت أن أمي حية، وسألته:

- أين أمي؟

- إنها هنا معي، أخذتها لأنني كنت أعلم أنك ستعود يومًا...

اقتربت منه، أمسكته من ذراعه، ثم ضممته إلى صدري، وأنا أقول له:

- شكرًا لك يا عمر... لم تتخلَّ يومًا عن عهدنا، لم تترك أمي...

أخذني إلى الغرفة التي كانت بها أمي، فتحت الباب، رأيتها جالسة على سرير تمسك بين يديها مسبحة، أسرعت إلى حضنها، أضمها، وأقبلها، وقد اجتاحني جيش من المشاعر، أضمها دون توقف، وهي تحاول أن تبعدني عنها، وبقيت برهة وأنا أبحر بين أنفاسها، ونبضات قلبها التي تهتف لي: أحبك يا بني! اشتقت إليك كثيرًا، أين كنت كل هذا الوقت؟ حاولت ثم حاولت أن تبعدني عنها، وأنا أضمها، أضمها إلى صدري، كأنني أضم عمري، روحي، أنفاسي، وكل ما في هذا العالم. العالم هو أمي، وأمي هي العالم، وفي الأخير نَجَحَت بإبعادي عنها قائلة:

-من أنت؟

نظرت في عينيها قائلاً:

- سليمان يا أمي... لقد عدت...

رمقتني بنظرة استغراب، ولوّحت بيدها:

- اذهب، أنا لا أعرفك، ابني سليمان استشهد.

-أنا ابنك يا أمي، لقد عدت من أجلك...

ظَلّت ترمقني بنظرات استغراب، وأنا أنظر في عينيها الذابلتين، ثم قلت بنبرة حزن:

-لم أنتصر في أي معركة يا أمي، ولكني عدت، أنا هنا بجانبك، لن أتركك مرّة أخرى.

لكن أمي كانت مصرّة على قولها إن ابنها سليمان استشهد، وليس لها سوى ابن واحد يعتني بها، هو صديقي عمر. اقتربت منها، حاولت أن أضمها مرّة أخرى، لكنها أبت ذلك وأبعدتني عنها، وصاحت في وجه عمر:

- أخْرِج هذا من هنا يا بني، صديقك سليمان استشهد قبل خمس سنوات، أنت تعلم ذلك، هيا أخرج هذا الغريب من هنا...

عادت إلى تحريك مسبحتها بأصابعها وهي تسبح في همس، وأنا أنظر إليها وقلبي المكلوم يهوي أمامي من الحزن، لا شيء يرفعه يا أمي بعدك، وقد صرت أنت على هذه الحال!

***

جلست في الصالون، أمام طاولة عليها مأكولات مختلفة، دعاني صديقي لتناول شيء منها، ولكنني كنت مُنهَك القوى، مشاعري مهزومة، مستسلم للحزن الذي كسر أضلعي. وسألته عما حدث لأمي، لمَ لا تتذكرني؟ فقال إنها فقدت ذاكرتها بسبب الزلزال، وتأسف لما أصابها. أخرجها من المستشفى لتقيم معه لأنها لم تكن تتذكر أحدًا غيره، حين لمحته في المستشفى

وهو يزور أحد أقاربه، قالت له: «أنت صديق ابني الشهيد، هيا أخرجني من هذا المكان، لو كان هنا سليمان لما تركني». فساعدها، ولم يتخلَّ عنها. ثم حدثني عن بثينة، قال إنها تزوجت، وسيأخذني لأراها من بعيد حتى أطمئن ولا أسأله مرة أخرى عنها، وتساءلت مع نفسي عما قالته لي الأميرة شمس: من أن بثينة ستتزوج أحد أبناء عمومتي، وسيحدث ذلك بعد أسبوع. لم فعلت ذلك؟ هل كانت تريد أن تغيظني؟ ولكن لمَ؟ ولمَ أسأل؟ أصحاب القلوب القاسية لا يحتاجون لسبب حتى يزعجوا الآخرين بالكلمات، بالنسبة لهم هي مجرد كلمات، تمرّ مرور الكرام ثم بعدها تختفي، ولكن لا يعلمون مدى أثرها على قلب الإنسان!

وسألت صديقي عن بثينة، متى تزوجت وممَّن؟ فأخبرني أنها تزوجت بعد عام من غيابي، قائلا: أعلن عن استشهادك في المعركة الأخيرة، وصدرت شهادة وفاتك، وبعد مرور عام، تقدم رجل لخطبتها وتزوجت.

أردت أن أتعرف على الرجل الذي جعل العائلة تقبل به زوجًا لكنتهم، ذلك الرجل الغريب الذي دخل بيت العائلة، وأخذ معه الصغيرة لتتربى في بيته، أردت بشدة أن أعرف من يكون هذا الرجل الذي سقطت كل التقاليد والأعراف على يديه، وأخذ جوهرة مصونة من بيتنا!

مـرت أول ليلـة في بيـت صديقـي قصـيرة جـدًّا، تقلبـت في السريـر مرتـين أو ثلاثًـا، ثـم بعدهـا نمـت مـن كثـرة التعـب.

في الصبـاح الباكـر اتجهـت إلى غرفـة أمـي، كان البـاب مفتوحًـا، وقفـت خارجًـا وأنـا أنظـر إليهـا وهـي تحـدث الخادمـة عـن ابنهـا الشـهيد، تخبرهـا بأنـه تـرك امـرأة جميلـة، مـن أجـل أن يحقـق حلمـه، أراد أن يخلـد التاريـخ اسـمه، أن يذكـر اسـمه بـين الأبطـال الذيـن استشـهدوا أو انتـصروا في سـاحة المعركـة.

تمنيـت أن أسرع إليهـا وأقـول: أمـي أنـا هنـا... مـا زلـت حيًّـا... وأحضنهـا. لكنهـا لمحتنـي فطلبـت مـن الخادمـة أن تغلـق البـاب قائلـة: لقـد عـاد ذلـك الرجـل مـرة أخـرى، لا تسـمحي لـه بالدخـول، ذلـك الرجـل ليـس ابنـي، ابنـي استشـهد...

وطأطـأت رأسي، وسرت نحـو الصالـون. كان هنـاك صديقـي الـذي دعـاني للجلـوس بجانبـه قـرب طاولـة، قـد وضعـت عليهـا وجبـة فطـور.

***

جلسـت بجانـب صديقـي في السـيارة، كنـت أراقـب بيتًـا قـال إنـه بيـت بثينـة، وطـال الوقـت قبـل أن ينفتـح البـاب، خرجـت بثينـة وهـي ترافـق ثلاثـة أطفـال، الصغـيرة ابنـة عمـي وولديـن، ثـم رأيـت خادمـة ترافـق الصغـار إلى سـيارة، وظهـر رجـل بـدا لي مألوفًـا، دارت عينـي وأنـا أنظـر إليـه، ثـم أغمضـت عينـيَّ

وفتحتهما، أتأكد مما أرى، ربما يُخيل إليَّ أنني أحلم، أيكون هو؟ قلتها بصوت مرتفع. ثم سألت صديقي في دهشة:

-أليس ذلك هو القائد؟ يبدو هو...

- نعم، إنه هو يا سليمان...

- كيف؟ هل هذا هو الرجل الذي تزوجته بثينة؟ ولكن كيف حدث ذلك؟ غير ممكن!

- الأمر بسيط، هو من أحضر أشياءك للعائلة، وأخبرهم أنك قد استشهدت، وجاءهم بشهادة الوفاة، ثم بعدها تزوج بثينة، تعلم أن الجميع يتحدثون عن جمالها، وكان هذا الجمال من نصيب القائد...

اختنقت أنفاسي، وكتمت كلمات كانت تدور في خَلَدي، كنت أود أن أقولها حين أراها.. كلمات اعتذار على ما مضى من عمرها في انتظاري، وهروبي منها حين كنا معًا كلما لمحت عمي في عينيها. وحزنت على عمي، لقد اختفى طيفه من حياتها، رمت بالحايك الذي كان يغطيها في عهده، عمي الذي أحبها أكثر من نفسه، وأوصاني على رعايتها، لم يرد أن تترك غرفتها، ولا بيت العائلة، ولا قريتنا، والآن، ارتدت ملابس أخرى، وصارت امرأة مختلفة، تبدو أكثر حيوية مما كانت معي، هي لم تحمل في قلبها شيئًا لي، ولم تلتق روحها بروحي يومًا، ربما وجدت الرجل الذي كانت تحلم به بعد رحيل عمي،

ربما القائد هو فارس أحلامها، وأنا لم أكن سوى صبيٍّ يؤدي دورًا ما في سلسلة من أحداث حياتها. والآن، ها هي تبتسم، تضحك في وجه القائد، يحدثها، فتنظر في عينيه، لم تكن تفعل هذا معي، لأني كنت أخشى أن أقع في مصيدة عينيها، فكنت أهرب بنظراتي نحو أي شيء في الغرفة كي لا تلتقي عيني بعينيها!

نظرت بثينة باتجاهنا، خفضت رأسي داخل السيارة خَشيَة أن تلمحني، فتح صديقي باب السيارة وخرج منها، اتجه ناحيتها، مشى بتمهل، كنت أتسلل النظر كل حين من زجاج السيارة وأنا ما زلت منخفض الرأس. وصلني صوته من بعيد، ألقى التحية عليها، ثم سألها عن أحوال الطفلة، سمعتها تقول له: إنها أفضل حال مما كانت عليه بالقرية... وتحدث مع القائد قليلًا، بعد أن ابتعدا عن بثينة مسافة، لم أسمع حديثهما، كان صوتهما منخفضًا بعض الشيء، وكنت أنظر إلى بثينة، التي بدت لي غير مبالية بما يتحدثان عنه.

ثم عاد صديقي إلى السيارة، لم يقل شيئًا، كان صامتًا، متجهمًا، وانطلقنا، تاركين خلفنا امرأة تبتسم للرجل الذي ظننتُ أنه قد مات، وقضيت خمس سنين من عمري في السجن بسببه، وأيامًا صعبة في الجزيرة.

وبدا الحزن على ملامحي، قلبي المكسور مما حدث لأمي وعائلتي، ووصية عمي بين أنياب ذئب! أخذت قنينة ماء

كانت بالسيارة، تجرعت منها رشفات، كنت أحاول إخماد النار التي اشتعلت داخلي، من رؤية القائد وهو ينعم بحياة سعيدة مع امرأة كانت بالأمس زوجتي، ووصية عمي التي كانت في عهدتي.

رَبّتَ صديقي على كتفي قائلًا:

-لا تحزن يا سليمان، هي لم تكن لك يومًا، وأنت أفضل حال مما لو عدت إليها...

- هل هي تعلمُ أنني عدت؟

- ومن يخبرها؟

- قلتَ: إن الخبر منتشر في الصحف...

- نعم، ولكن لم يذكر اسمك، الخبر عن رجل، رجل بلا هوية!

اتكأت برأسي على النافذة، شعرت بدوار، وانتابني صداع قويّ لا يحتمل بجهة اليسار من رأسي، وتساءلت مع نفسي: هل أصبحت بلا هوية؟ هل أنا مجرد رجل كان في معركة، ثم في سجن، ثم في جزيرة، وعاد إلى الوطن؟ هل حلمي الذي أسس داخلي بنيانًا من الأماني أن يذكر التاريخ اسمي، لم يذكر حتى هويتي في الصحف من أنني بريء من تهمة قتل القائد، وأن الأمر كان خطأ غير مقصود؟ هل انتهت القضية دون ردّ أي اعتبار لنفسي وعائلتي؟

لقد تحطمت آمالي كلها من كل ما سمعت، وشعرت بانهيار روحي أمامي!

طلبت من صديقي أن يوقف السيارة، فتحت الباب، اندفعت خارجًا، انتابني شعور بالغثيان، مشيت خطوات، بدت لي الشوارع تدور من حولي، رؤوس المارين فوق الأرصفة، كأنها تزحف أمامي، لم أعد أفهم شيئًا مما أرى. زاد الصداع أكثر فأكثر، أمسكت رأسي بكلتا يديّ، الألم كان مُبرّحًا جدًا، كأن رأسي سينقسم إلى شطرين من شدة الصداع، ناديت صديقي:

- عمر... عمر...

نظرت في اتجاهه، ظهرت سيارة سوداء تقف بجانب سيارته، ثم لم أعد أرى سوى الضباب، ووقعت على الأرض، وأحسست أنني مقيد بشي ما يسحبني إلى أعماق المجهول، ظلمة، ثم ظلمة، ولم أعد أرى شيئًا. سمعت صوتًا خافتًا يناديني: سليمان، سليمان، لم أعرف من كان يناديني، ربما عمر. وبعدها لم أعد أشعر، كأنني في رحلة إلى المجهول، في نوم عميق أخذني لأرتاح من كل هذه الأخبار التي تجرعتها مشاعري دفعة واحدة، ولم تعد تقوى على استيعابها. ولا أدري كم من الوقت مرّ عليَّ وأنا على تلك الحال.

حين فتحت عينيَّ كنت في غرفة بيضاء، غرفة تشبه غرفة المجانين في مستشفى الأمراض العقلية. نظرت من حولي،

ظهرت لي ممرضة تقترب مني، تقدمت نحوي، أخذت يدي تقيس نبضي، كتبت شيئًا على لوح كان معلقًا على السرير، ثم أعادته إلى مكانه، ابتسمت لي دون أن تقول شيئًا، ثم غادرت الغرفة، وبعد قليل دخل مجموعة من الأطباء، والممرضين، كانوا يتحدثون بطريقة غريبة، لم أفهم ما كانوا يقولونه، كانوا جميعًا يضعون أقنعة تغطي وجوههم، كتلك الأقنعة التي يضعها الأطباء في غرفة العمليات، وقال أحدهم: لقد مرّ على غيبوبته أسبوعان، علينا أن نجرب الدواء الجديد، لنرى إن كانت حالته ستتحسن.

حقنوني بالدواء، ثم غبت مرة أخرى ولم أعد أسمع أو أعقل ما يحدث معي، وكلما استفقت، نظرت من حولي، وناديت صديقي، أين أنت يا عمر؟ أين أنت؟ وسألت الممرضات عنه، ولكن لم تجب أي واحدة منهن. وبعد برهة أتى طبيب، حقنني بالدواء، ثم غبت مرة أخرى، وتكرر هذا أكثر من ثلاث مرات، وبدأت أشعر بألم في كل جزء من جسدي، ولم أعد أقوى على تحريك يديَّ أو قدميَّ كلما فتحت عينيَّ.

في المرة الأخيرة، نظرت من حولي، أدركت أن لا ملجأ من كل هذا سوى اللجوء إلى الله، هو وحده القادر على أن يخرجني من هذه المتاهة التي دخلتها، ودعوت الله أن يخرجني ممّا أنا فيه، دعوته دون توقف، واستغفرت الله ألف مرة وأكثر من

ذنوبي التي شعرت بأنها أكثر ما يقيدني على ذلك السرير، ومرّ ذلك اليوم وعيناياَ مغمضتان، ولكنني كنت أشعر بكل شيء.

فتحت عينيَّ، كانت الغرفة خالية، نظرت إلى الباب، ظهر لي من خلف الزجاج صديقي، كان هناك، فرفعت أصابعي أشير إليه بأن يأتي، فسمحوا له بالدخول، اقترب مني دون أن يقول شيئًا، أحسست أن هناك خطبًا ما، وأن هناك من يراقبه، فأشرت له أن يقترب مني أكثر، اقترب، همست له في أذنه قائلاً:

-لَمَ يريدون أن يتخلصوا مني؟ أنا لم أفعل شيئًا...

وهمس في أذني قائلًا:

- اصبر، سنخرجك من هنا قريبًا...

- متى؟ حين ينتهي كل شيء، وأصبحُ لا شيء؟ قل لي إنك معهم أيضًا

ضمني صديقي إليه، وهو يهمس:

- لا تخف، لن أتخلّى عنك... ولن أسمح للقائد بأن يتخلص منك...

همست:

- القائد... لكني لم أفعل له شيئًا... آه نسيت، هو يحقد عليَّ لأني لم أطلق النار عليك، والرصاصة أصابته...

ابتعد عني، رتب هندامه وهو ينظر إليَّ، رأيت في عينيه وعدًا ووفاء ربطا على قلبي، ثم خرج من الغرفة، في تلك اللحظة، دخل رجال ملثمون، يرتدون ملابس بيضاء، حملوني ووضعوني على ناقلة، حركوا تلك الناقلة ببطء، وهمّوا بإخراجي من الغرفة، وإذ هم سائرون بي، صرخت:

- إلى أين تريدون أن تأخذوني؟ هيا أخبروني...

ظهر لي من بعيد القائد، كان هناك يحدق بي، شعرت أنها النهاية، وأنني خسرت المعركة، معركة النجاة، بعد أن خسرت معركة الحرب. ليس لي الآن إلا الاستسلام للنهاية، وتذكرت وعدي لجواد بأنني سأعود إلى الجزيرة من أجل ياقوت، ولكنني لم أكن جديرًا بالعهد، ما دمت لن أستطيع الوفاء به، لمحت ياقوت في وجوه الممرضات، تلك الممرضات كُنّ يتهامسن، سمعت إحداهن تقول: إنه يتخيل أنه كان في جزيرة مع أميرة اسمها ياقوت... يا له من مسكين... وصحت:

-لست مجنونًا، لقد كنت في الجزيرة... صديقي عمر يعلم ذلك، والقائد... والصحف...

وتقدم نحوي القائد، اقترب مني قبل أن يأخذوني، همس في أذني قائلًا:

- أجل، لقد نشروا ذلك في الصحف، ولكن الخبر الذي نشروه ولا تعرفه هو أن مجنونًا يقول إنه كان في جزيرة المنبوذين،

وعـاد إلى الوطـن... مـن سـيصدقك يـا سـليمان؟ انـسَ، لقـد انتهـى كل شيء... أكنـت تظـن أن فعلتـك تلـك سـتغتفر وتمـرّ دون عقاب؟

قـال لي ذلـك وابتعـد وهـو يبتسـم ابتسـامة سـاخرة ممزوجـة بالحقـد، وصحـت:

- ألا يكفيـك خمـس سـنوات مـن عمـري في السـجن؟ إنهـا خمـس سـنوات في زنزانـة مظلمـة...

وبسرعـة دفـع بي الرجـال نحـو مصعـد، أغلـق المصعـد علينـا، ولم أعـد أرى القائـد وصديقـي، والممرضـات. ثـم أخـذوني إلى غرفـة بهـا مجموعـة مـن المـرضى، مُكبّلـين عـلى أسرَّة، يبحلقـون في السـقف. كانـت هنـاك ممرضـة تراقبهـم، تنتقـلَ مـن مريـض إلى آخـر، تقيـس نبـض كل واحـد منهـم، وتتأكـد مـن أنـه مـا زال ينبـض. وأصبحـت في لحظـة واحـدة مـن هـؤلاء المـرضى، الذيـن ليـس لهـم أمـل بالنجـاة، كل واحـد منهـم ميـؤوس مـن حالتـه، تجُـرَّب عليـه أدويـة عسـى أن تنجـح في عـلاج المـرضى الأصحـاء!

***

مـرّ اليـوم الأول وأنـا في تلـك الغرفـة مـع أولئـك المـرضى، وأنـا أنظـر إلى السـقف، أحـاول تأديـة دور المجنـون الـذي نسـبوه لي، كنـت أقـول مـع نفسـي: لـن أسـمح لهـم بـأن ينهـوا قصتـي بهـذا الشـكل أبـدًا، سـأخرج مـن هنـا، سـألعب دور المجنـون، وأتقـن الـدور، ثـم سـأهرب، ولـن أتـرك للقائـد فرصـة الفـوز، يكفـي

أنـه أخـذ وصيـة عمـي، ذلـك الذئـب لم يكتـف بالسـيدة الجميلـة وطفلتهـا، يريـد أن يتخلـص منـي، ولكـن لـن أَمَكِّنَـهُ منّـي، ولـن يحتفـل بنهايتـي!

في المسـاء انطفـأت الكهربـاء، أغمضـت عينـيَّ أفكـر في خطـة للهـرب، عـليَّ ألّا أتنـاول الـدواء الـذي تمـده لي الممرضـة، سـأخفيه تحـت السريـر كـما فعلـت اليـوم، الممرضـة كانـت قـد وضعـت لي قرصًـا في فمـي، نمـت عـلى جنبـي الأيـسر، ورميـت بـه بجانبـي، ثـم حركـت يـدي الثقيلـة نحـوه، أخذتـه ووضعتـه تحـت الوسـادة، كنـت آمـل ألا تجـده الممرضـة، فيـديَّ لم أكـن أتحكـم بهـما جيـدًا حتـى أضـع القـرص تحـت السريـر. كان لـديَّ أمـل في أن تتحسـن صحتـي إذا توقفـت عـن تنـاول ذلـك الـدواء، بعـد أن توقفـوا عـن حقنـي بذلـك الترياق المجهـول الـذي كانـوا يضعونـه في أوردتي. أغمضـت عينـيَّ مستسـلمًا للنـوم الـذي زارني. ثـم فتحـت عينـيَّ عـلى حـركات خفيفـة في الغرفـة المظلمـة، رائحـة زكيـة شـممتها بالقـرب منـي، تلـك الرائحـة تشـبه عطـرًا تضعـه الأمـيرة ياقـوت، وسـمعت همسًـا في أذني:

-أنا هنا يا سليمان، جئت من أجلك... لحقت بك...

قلت وأنا بين اليقظة والنعاس:

- من؟ ياقوت؟

وضعت يدها على فمي وهي تهمس في أذني:

- لا تتحدث... أنا هنا لأخرجك، تصرّف على أنك ميت، لا تحرك ساكنًا... إنهم هنا بالقرب منا...

فعلت ما قالته لي، أغمضت عينيَّ، أرخيت بجسدي كله، وتنفست ببطء. اقترب رجلان مني، قالت لهما:

- هذا يجب أن نأخذه للغرفة رقم عشرة...

حملوني على ناقلة حديدية باردة، ثم أخذوني نحو تلك الغرفة، وضعوني على سرير، ثم أغلقوا الباب خلفهم وخرجوا، سمعت صوتًا خافتًا يقول: افتح عينيك يا سليمان... فتحت عينيَّ، لم أصدق ما رأيت، صديقي، جواد، ياقوت، الثلاثة هنا معي، كلهم يرتدون ملابس الأطباء، جلت بنظري في الغرفة، كانت هناك طاولة بالقرب مني، عليها المقصّات الجراحية، والمشارط، وغيرها من أدوات الجراحة، سألت ياقوت في ذهول:

- ما هذه الغرفة؟

- إنها غرفة العمليات، سنخرجك من هنا قبل أن يأتي الأطباء ليجروا لك عملية على الدماغ، إنهم يعتقدون أنك تعاني من مشكلة في الدماغ...

أصابني الهلع مما سمعت، وقلت في دهشة:

- عملية في الدماغ!

حاولت أن أقوم من السرير، ولكن جسدي لم يساعدني، كان ثقيلاً، كأنني رُبطت بحجارة كي لا أتحرك من مكاني. أَحضر صديقي كرسيًّا متحركًا، ثم حملني رفقة جواد، ووضعاني عليه، وأخرجاني سرًّا من المستشفى، وكلما سألتهم ممرضة أخبرتهم ياقوت بأنهم سيأخذونني إلى جناح الدكتور عين. لم أفهم ما المقصود بذلك، فسألت صديقي، فهمس في أذني: إنه جناح خاص بمن لديه معرفة شخصية بالدكتور عامر، الملقب بعين، كل من يدخله يستطيع أن يُخرج قريبه من هذا المكان!

ركبنا سيارة إسعاف، يقوم بسياقتها ممرض دفع له صديقي الكثير من أجل صمته، وتركنا مستشفى المجانين، وغادرنا نحو مكان مجهول. أجلسوني بجانب ياقوت، مددت رأسي على كتفها، أحسست بالأمان كما لو أنني بجانب أمي، أمي وحدها من كانت تخشى عليَّ من العالم، تخبرني خفقات قلبها أنني آمن، اليوم أشعر بأنني ذلك الطفل الصغير، الذي كان يسند برأسه على صدر أمه، ويضمها، يمسكها بكلتا يديه ولا يبتعد عنها حتى يشعر بأن طاقة الأمان التي يستمدها من أمه قد انتقلت إلى كل العالم.

بقيت على تلك الحال، لا أحرك ساكنًا، ضعيفًا، مهزومًا، لا أقوى على السير، والوقوف وحدي، ولا الركض؛ لأهرب مما أنا فيه، ياقوت جناحايَ اللذان أحلق بهما في عالم يبدو أنني

لا أفهم فيه شيئًا، هذا العالم الذي يسكنه أناس سرقوا مني حلمي، ويريدون أن يسرقوا مني حتى أنفاسي!

١٣

في مزرعة صديقي بإحدى القرى البعيدة، كنت أجلس بجانب أمي، أمي التي لا تتذكرني، أصبحت تتقبل رؤيتي، أخبرتها أنني صديق ابنها الشهيد، حضرت معه كل المعارك، وواسيته على غيابه عنها، ابتسمت لي وسألتني عن آخر كلماته، فقلت لها:

- أن يراك، ويضمك إلى صدره، وأن تلامس ضفائرك وجهه...

ضحكت، وظهرت نواجذها، وانشرح صدرها، وقلت:

-تخيلي أنني ابنك، أتسمحين لي أن أضمك...

فتحت ذراعيها، ضمتني، وبكيت بكاء حارًّا، بكاء طفل فقد كل شيء، بالكاد يحرك يديه وقدميه للمشي كأنه يتعلم المشي لأول مرة، ولامس وجهي ضفائرها، استنشقت عبير حبها وروحها، وقبلت وجنتيها، ووضعت رأسي في صدرها، منتحبًا، وسألتني:

- ما يبكيك يا بني؟

تذكرت تلك الكلمات في طفولتي، حين كانت تسألني، وأجهشت بالبكاء، وقلت:

- لقد خسرتُ يا أمي...

- ماذا خسرت؟

- كل شيء، أنا مطارد... ورجل مجنون بلا هوية، وأم لا تتذكـ...

وقبل أن أنهي الكلمة الأخيرة، سكتُّ، وابتلعت بقية الحروف، وتوقفت عن البكاء، فقالت:

- لا تحزن، أنت هنا في مكان آمن، ابني عمر لن يتركك، هو لا يترك رفاق صديقه سليمان...

ابتعدت عنها، وأنا أمسح دمعي، وأمسكت يدها بين يديَّ أقبلها، ثم قمت أجرّ قدميَّ خارج الغرفة، حاملاً جبل الحزن في قلبي. التقيت بياقوت، أسرعت إليّ، أمسكتني من ذراعي قائلة:

- لا تتعب نفسك يا سليمان، عليك أن ترتاح كي تشفى...

ومشيت معها نحو غرفتنا، واستلقيت على السرير. لقد مرّ على وجودي في هذه المزرعة أكثر من شهر، ولم أستعد عافيتي بعد، ياقوت وجواد معي، وصديقي عاد إلى بيته في المدينة، وعدني بأن يساعدني للسفر خارج البلاد، قال إنه سيرسلنا نحن الثلاثة إلى بلد أوربي، والقائد لن يصل إلينا، وحقده لن يصطادني كفريسة وحيدة ضائعة.

***

لقد مرّت ثلاث أشهر في المزرعة، أستمع إلى حكايا أمي عني، وعن قريتنا ووالدي وإخوتي، وأحكي لها عن سليمان ابنها البطل، تسألني: من أين لي بكل تلك التفاصيل عن حياته؟ فأخبرها: أننا نشبه بعضنا، كنت قلبه وعقله، وتوأم روحه، فعرفتُ عنه كل تلك الأشياء، فتبتسم دون أن تقول شيئًا، وأحيانًا أقول لها إنه كان يخبرني بتلك التفاصيل الصغيرة عن حياته. كانت ياقوت من حين لآخر تجلس معنا، تتعرف على الرجل الذي تركت خلفها موطنها، وسلطة، وقضية، ولحقته إلى وطنه. قضية تحرير سكان الجزيرة من الأقنعة، ومن قيد عهد قديم ما زال يتغلغل داخلهم كالعنكبوت حين تتسلل لمكان وتقيم فيه بيتها، وحين ترى فريسة تشدها وسط الخيوط فلا تستطيع أن تتحرر منها، هكذا هم، لا يمنعهم شيء من التحرر من البيت الواهن إلا خوفهم!

في الكثير من المرات، كنت أبحر في عينيها وأسأل نفسي: هل أستحق كل هذا الحب، أن يترك أحد ما كل شيء خلفه ويلحق بك حيث أنت، وتكون كل حياته، وعالمه، ومدن الشوق، وقضيته الأولى! وسألتها مرة:

- هل أستحق هذه المجازفة؟

نظرت إليّ في دهشة قائلة:

- مجازفة! أيّ مجازفة تقصد؟

- تركتِ موطنكِ من أجلي...

- أنت موطني، الوطن ليس أرضًا، ولكن نفسًا نسكنها! أنظر إليك وأنت تتحدث مع أمك، أرى عالمك، ووطنك في عينيها، وأنت عالمي ووطني، أنت وأبي الوطن، وهويتي، أما الأرض إن لم تكونا فيها أنتما، فهي غربة، وأنا غريبة عنها!

وأبحرت في معاني كلماتها، وتلألأت عيناي شوقًا لضم روحها، أسكنها بين أضلعي، ولا أسمح لها بأن تبتعد عني! وأمسكت يدها بين يديَّ وقلت:

- أين كنتِ من قبل؟

ابتسمت قائلة:

- كنتُ في انتظارك... وها أنت أتيت إليَّ مرغماً، جاء بك القدر حتى بابي، فلا تحزن بعد الآن على ما مضى من عمرك، ولكن احمد الله أننا التقينا، ولم يدم فراقنا سوى بضع سنوات من عمرنا، والبقية سنعيشها معًا بإذن الله...

- أحمد الله عليك، وعلى كل شيء، وعلى وفائك...

- اشكر قلبي! هو من لحقك...

- شكرًا يا قلب ياقوت على هذا الحب!

ضحكت، وضم قلبي ضحكتها، ثم سألتها:

- كيف فعلت كل هذا؟

- لأنك وعدت أبي بالعودة، ولأنك حرّ، ووعد الحرّ دين عليه، فقد عرفنا أنك في مشكلة، فلم نتخلَّ عنك، لأنك أنت أيضًا لو حدث ذلك معنا ما تخليت عنا...

أمسكت يدها بين يديَّ، قائلاً:

- قلبي كان معك، وكنت سألحق به حتى لو لم أكن قد وعدت بالعودة...

أشرقت ملامحها بابتسامة وهي تنظر إليَّ، رأيت حديقة قلبي في عينيها. مزهرة بالودّ، وفراشات الفرح تحلق بين ورودها. وبعد برهة من الصمت، وعيوننا قد استسلمت لحديث القلب. سألتها:

- كيف عرفتما بكل ما حدث لي؟

- حين مرّت ثلاثة أيام ولم تعد، وجل قلبي، وظهر ذلك في عينيَّ، فهم أبي ما حلَّ بي، فأرسل خلفك بعض الرجال، فعلمنا بما حدث لك... كان أبي سيأتي لينقذك، فقررت أن أرافقه...

- والجزيرة...

- الجزيرة عادت لحالها، الوزير فهم من غيابك أن هناك خطبًا ما، فلحق هو وجنوده بعض الثوار إلى الجهة الشمالية، وحرر شمس، وفي اللحظة التي كنتُ أنوي فيها مغادرة القصر، كان الوزير مع شمس وبعض الجنود يُطوّقون القصر، وأنا تمكنت

مـن الهـرب بالتسـلل مـن مخـرج الطـوارئ.... وبعـد أن وصلـت إلى الجهـة الشـمالية، ركبـت القـارب مـع أبي وبعـض الرجـال، وأتينـا للبحـث عنـك...

تنفست بعمق الارتياح الذي شعرت به، وقلت:

-حـين أخـذوني إلى ذلـك المستشـفى، ظننـت أنهـا النهايـة، ولكـن الحمـد لله أننـي هنـا معـك، ومـع أمـي، آمـل أن تكـون هـذه بدايـة أفراحـي، ونهايـة أحـزاني كلهـا...

***

تنفسـت الصعـداء حـين وصلـت باريـس، هنـاك لـن يصلنـي القائـد ورجالـه، أصبحـت حـرًّا، وبهويـة أخـرى، صـار اسـمي سـعيد بـن قـدور، هـذا مـا كان مكتوبًـا عـلى الهويـة التـي أحضرهـا لي صديقـي، لم يكلمنِـي أحـد في المطـار، ولم يسـألوني عـلى الحـدود، صديقـي الرجـل الحكيـم، صـار لـه وضـع خـاص فَي البـلاد، أصبح عضـوًا في أحـد الأحـزاب، وصـار له معـارف هنا وهنـاك، وكل شيء يسـير كـما يريـد! صديقـي أيضًـا لـه معـارف في باريـس، اسـتقبلوني في المطـار، وأخـذوني إلى بيـت ريفـي، هنـاك زرعـت الأشـجار، وأسسـت مزرعـة دواجـن، وأصبـح لنـا أنـا وياقـوت أطفـال.

سـألت صديقـي أكثـر مـن مـرّة كيـف وصـل إلى مـا وصـل إليه؟ أن يكـون لـه وضـع خـاص، ويُعامَـل معاملـة خاصـة، فلـم يخـبرني، كان يقـول إنهـا الأرزاق، كل مـا وصـل لـه مـن مـال ونفوذ هـو رزَق

مـن عنـد الله، وأنـا أيضًـا أسـتطيع أن أصـل إلى ذلـك يومًـا مـا، إن حاولـت أن أجعـل مـن قصتـي حدثًـا دوليًـا تتسـابق عليـه الصحف مـن أجـل نـشر روايتـي، ولكـن الـسرّ الـذي كان يخفيـه عنـي، هـو أنـه لا يشـعر بالراحـة، في الكثـير مـن المـرّات يبـدو مهمومًـا، ملامحـه كانـت تقـول ذلـك، يصطنـع الابتسـامات والضحـكات، كلـما تحـدث عـن رفاقـه الذيـن رافقـوه في مسـيرة الثـورة، ثـم بسرعـة ينهـي الحديـث بالـكلام عـن مشـاريعه مـع رفاقـه الجـدد!

صديقـي الـذي لم يتوقـف عـن محبتـي، كانـت ثمـرة الحـب التـي غرسـنها معًـا في طفولتنـا، بالضحـكات، والأحـلام، والركـض في الـروابي، يسـقيها دومًـا رغـم بعدنـا. هـو أحـضر أمـي مـرّة لزيـارتي، وتركهـا معـي، أخبرهـا أن لديـه أعـمالاً كثـيرة، وأن أفضـل بيـت لهـا هـو بيتـي، بيـت رفيـق ابنهـا في الحـرب.

في البدايـة كانـت لا تغـادر غرفتهـا، ثـم بعـد وقـت تقبلـت العـالم الجديـد الـذي صـار عالمهـا، وأصبحـت تـربي معـي أطفـالي، وتحدثهـم عـن عائلتنـا، وعـن ابنهـا الشـهيد، الـذي استشـهد في سـاحة المعركـة، وصرتُ قريبًـا منهـا، أضمهـا في لطـف، وأحدثهـا عـن سـليمان، ابنهـا الـذي تقـول لي: إننـي أشـبه والـده حـين غـزا الشـيب رأسي ولحيتـي، وإننـي أذكرهـا بـه، وكلـما سـمعتُ ذلـك، أبتسـم، وتنـشرح أسـاريري كلهـا، ويصيـح صـوت داخـلي: هـل أصبحـت أشـبه أبي؟ مـا أجملنـي وأنـا أشـبهه! ومـن مثـل أبي؟ كان

رجلاً شهمًا، شارك في الحرب ضدّ الاستعمار، وجاء جريحًا، يحمل وسامًا على المعارك التي خاضها في حياته. وتذكرت آخر كلماته حين قال لي وهو يسمعني أعد أمي بالعودة منتصرًا: «العودة بيد الله يا بني! المحاربون يرحلون صامتين، يحلمون بتحقيق النصر. يمكن أن ينتصروا، أو يموتوا في ساحة المعركة ويدفنوا مع الشهداء، وتبقى ذكراهم ساكنة في ذاكرة أحبتهم، وشاهدة محفورة في ذاكرة التاريخ، دمهم يسقي التربة المباركة، فتنبت زهرًا يُعطّر الوطن!» أنا هكذا أصبحت حيًّا في قلب أمي. مثل كل المحاربين الذين استشهدوا.

كلمات أبي ما زالت تدغدغني من حين لآخر، تعيدني إلى الماضي الذي لا يموت في قلبي، يسكن كل زاوية منه، يذكرني بحلمي، وبما آلت إليه أموري الآن. وتذكرت طفولتي، وهواياتي، ورسوماتي، وكل ما كان في الماضي ممّا عشته في قريتي. وقررت العودة إلى هوايتي في الطفولة، تلك الهواية التي كنت قد دفنتها في القرية، هواية الرسم.

أصبحت أرسم من حين لآخر لوحات تجسد تاريخ عائلتي ووطني، وكل معركة خضتها في الماضي، وأصبح لي غرفة تشبه المعرض الفني، أضع فيها اللوحات، وبجانبها فرشات الرسم وكل الألوان، أنحت بقلبي وذاكرتي، صورًا تجسد آلامي وأفراحي على اللوحات، وكل أيامي التي عشتها رفقة حلمي،

حين كان يراودني، وحين أمسكت برايته في ساحة المعركة، وحين خسرته وأصبحت في زنزانة مظلمة، وكل ما حدث بعدها من آلام عشتها في المستشفى، وغيرها...

وبعد أكثر من ثلاثين عامًا، قررت أن أقيم معرضًا فنيًا للوحات، وكنت قد تحدثت مع صديقي حول هذا الموضوع، فأعجب بالفكرة، وأنشأ لي معرضًا، واخترت عنوان المعرض: «الملحمة» وانتشر هذا الخبر في الصحف، فحضر يوم المعرض الكثير من المهتمين بالتاريخ، لأن لوحاتي كانت تجسد تاريخ وطني، الاستعمار، الحرب، المعارك، التحرير، الحرية، وأنا... أنا كنت جزءًا من تلك الملحمة!

وفي المعرض كنت واقفًا مع مجموعة من الصحفيين، أجيب عن أسئلتهم حول سبب اختيار هذا العنوان للوحاتي، أجبتهم: أن كل لوحة لها اسم خاص بها، غير أن الرابط الذي يجمع بين اللوحات، هو النهاية، نهاية الحزن، والفراق، والحسرة، والخداع، وبداية عهد جديد... إنها ملحمة إنسان ووطن وقلب، إنها معركة نهاية كل شيء سيئ كان في الماضي... وبينما أنا أجيب عن الأسئلة، تراءى لي رجل عجوز، يجلس على كرسي متحرك وبجانبه امرأة، كانا يحدقان بأهم لوحة بالمعرض، أنهيت الإجابة عن الأسئلة، وتوجهت إليهما، كانا الاثنان يذكرانني بشخصين حفرا اسميهما في ذاكرتي - القائد

وبثينة – اقتربت منهما، ألقيت التحية عليهما، ووقفت صامتًا أنظر إليهما، أنتظر أن يسألني أحدهما، إن كنت سليمان؟ أو يقولا لي: إنني أشبهه... ربما لحيتي التي غزاها الشيب تخفي شيئًا من ملامحي، ولكن أنا هو أنا، عينايَ هما عينا سليمان، تظهر فيهما كل تلك الحروب التي خاضها! لا يعقل أن يجهلني أحد إلا من فقد ذاكرته كأمي. قال لي القائد وهو يوجه لي سؤالاً دون أن ينظر إليَّ حتى، عيناه كانتا تحدقان باللوحة:

- هل أنت الفنان سعيد بن قدور؟

تطلعت إليه في غضب، ثم ابتلعت ذاك الغضب الذي اعتراني، وكاد أن يظهر على ملامحي، وأجبته:

- نعم.

التفت إليَّ قائلًا:

- أنت صاحب هذه اللوحة؟

- كل اللوحات في المعرض هي لوحاتي...

ظل يحدق باللوحة، فدفعني الفضول لأسأله:

- لِمَ تسأل عن هذه اللوحة؟

-لأنها تذكرني بالماضي... هذه اللوحة ترمز إلى النهاية، وإلى معركة خضتها يومًا.

استجمعت شجاعتي كلها، وبنبرة حادة قلت له:

-لا، اللوحة ترمز لشيء آخر، وعنوانها ليس النهاية.

حدق بي وهو يحرك نظارته السميكة:

- ما هو عنوانها؟

- ملحمة ما قبل النهاية بقليل!

حرك حاجبيه، خلع نظارته وهو يحدق بي لبرهة، كأنه يفكر في أمر ما، ثم سألني:

- لم اخترت لها هذا العنوان؟

-لأن النهاية لا يعلمها إلا الله... ولم تأت بعد! ومن يسعى لإنهاء الآخرين لا يعلم أن نهايته قد تكون أقرب...

ابتلع ريقه بعسر وهو ينظر إليَّ، ثم أعاد نظارته السميكة، كانت يداه ترتعشان وهو يضع النظارة. شعرت بأن هذا الكلام أزعجه، ذكره بما صارت عليه أموره، كان صديقي قد أخبرني بأن القائد تم فصله عن عمله، وترك البلاد، وأصبح يعيش في فرنسا منبوذًا، ولم يعد له شيء في الوطن ولا حتى خارجه! وعلمت من صديقي أن ابنة عمي - تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تنادني بابا - أصبحت طبيبة واستقرت بالمدينة بعد زواجها، وهو كان يزورها من حين لآخر منذ أن كانت طفلة ليطمئن عليها، ويعلمني بأخبارها.

وبعد برهة من الصمت، وهو يحدق باللوحة، ويفكر في كلماتي قال:

- من تقصد بالكلام الذي قلته؟

ثارت ثورة داخلي، واشتعلت نار الحرب، أردت أن أقترب منه، وأشده من قميصه بقوة وأصيح في وجهه:

- أنا سليمان... ألا تتذكرني أيها الجبان؟ انظر لحالك الآن، لقد نلت جزاءك...

لكني هدّأتُ من نفسي، أخذت نفسًا عميقًا، وتذكرت وعدي بالتصالح مع الماضي، ونسيان كل شيء من أجل أمي وياقوت. تركت القائد العجوز، الذي كان يحرك نظارته السميكة كل حين، وهو ما زال يحدق بتلك اللوحة، بدا لي أنه لم يتعرف عليَّ، ابتعدت عنه قليلاً، نظرت إلى بثينة، بدا الدهر قد رسم خطوطه على وجهها، والشيب غزا شعرها، الذي كان يظهر منه بعض الخصلات من تحت الوشاح الذي تغطي به رأسها. اقتربت من ياقوت، التي كانت واقفة بالقرب منا، كانت تراقبنا، تخشى أن أقع فريسة الغضب، وأزلزل المكان وأنا أواجه القائد المهزوم على الكرسي المتحرك، وأخبره بأني أعلم أنه خلف كل ما حدث لي، هو من أرسلني للجزيرة، ومن أدخلني مستشفى المجانين، ومن نشر الإشاعات حول جنوني في الصحف، أراد أن يتخلص مني خوفًا من أن آخذ منه بثينة،

ولكن بثينة لم تكن لي يومًا، ولا أظن أنها كانت له، قلبها كان معلقًا بعمي الشهيد، وصورته ما زالت تسكن عينيها، رأيت ذلك وهي تحدق باللوحة، التي تُذكّر كل من يراها بالآلام التي خلّفَتها الحرب في قلوب من عاصرها.

اقتربت من ياقوت، أمسكت يدها قائلًا:

- أنا بخير، لا تخافي...

ومشينا قليلًا بالمعرض، ثم وقفت، ونظرت في عينيها قائلًا:

- التقيت بالماضي اليوم، حرك شيئًا داخلي، ولكنه لم يتغلب عليَّ، لقد شفيت من تلك الأحزان، ولم تعد ترعبني الذكرى، ولم يعد يشدني الحنين لتلك الأيام...

ابتسمت، وأمسكتني من ذراعي، قائلة:

- الآن يمكننا أن نسافر...

تساءلت في دهشة:

- أين نسافر؟!

- إلى وطنك، لقد تمّ العفو عنك، لم تعد مطلوبًا يا سليمان... هذه مفاجأة لم أرد أن أخبرك بها بالأمس، حين علمت بذلك قررت أن أخبرك بها اليوم حتى نحتفل بحدثين، المعرض، والعودة إلى الوطن...

انشرحت أساريري كلها، وسعدت بهذا الخبر، لطالما أردت أن أزور وطني، أن أستنشق عبير تربته، وتلامس روحي هواءه، وأقضي ما تبقى من عمري بين أحضانه...

***

ها أنا أخطو نحو الوطن - في سنة ٢٠٠٠- تلامس أشواقي كل المدن، والقرى، والشوارع، والبيوت، أنظر من الطائرة إلى الأرض، الحنين يشدني، ومشاعري كلها تحررت. الماضي وكل أمنياتي وأحلامي في الطفولة، تستقبلني في المطار، وصديقي ورفاقه، وكل من سمع بقصتي كان هناك، يستقبل الرسام سعيد بن قدور، إلا صديقي عمر، كان هناك يحمل لافتة تحمل اسمي «سليمان بن عبد العزيز بن منصور» كتب اللوحة بلون علم الوطن، أسرعت إليه أضمه كأنني أضم أبي، وإخوتي، وعمي، وكل عائلتي، وقريتي، وطفولتي، والبطل في ساحة المعركة، وكل معاركي التي خضتها... دمعي انسكب على قميصه، ودمعه التقى بدمعي، ونبضات قلبينا اتحدتا من جديد. ورجال كانوا حولنا، تأثروا بالمشهد، لامست صورتنا مشاعرهم، وهتفوا باسمي. واستقبلني بعضهم بالحليب والتمر، والحلوى، والمصورون يتلقطون الصور، لقد صرت رمزًا للوطن، وكل من كان هناك أحب أن يلتقط لنفسه صورة معي، وأنا كتمثال من الشمع، يذوب أمام مشاعره، ينطفئ مع كل

ذكرى تمر أمامي كشريط سينمائي، وآمل من أعماقي أن ينتهي هذا الحدث بسرعة، وأغادر المطار، أتجه إلى القرية، أركض نحوها، أحضنها، أحضن أنا الآخر، الذي ما زال هناك بين ركام بيتنا الذي انهدم بالزلزال...

مرّت ساعات اليوم عليّ بالمدينة كأنها عمر انقضى وعاد ليحيا من جديد، بين أناس ألهمتهم قصتي، أرادوا أن أحدثهم عما مضى. وأنا كنت أنتظر الفرصة حتى ألحق مشاعري نحو القرية.

في عشية اليوم، أخذني صديقي من العالم الذي شعرت بأنني محتجز فيه إلى العالم الذي تقيم فيه مشاعري، ركبنا السيارة، واتجهنا نحو القرية. وقبل أن أخطو أول خطوة، كان قلبي يدفعني للركض، نحو الحقول، والوديان، والشجرة التي شهدت على قسمي، أنني سأكون بطلاً، وجنديًا، وسأحقق حلمي...

مشيت أتجول في الحقول، أمرُّ بكل مكان لي معه ذكرى، ألقي عليه التحية، وأخبره بأنني لم أعد أنا، ذاك الطفل الحالم، وأنني صرت رجلاً في داخله طفل، ولكن ليس كالطفل الذي قالت لي عنه أمي. طفل آخر، يحن للماضي الجميل، الماضي ما قبل أن أصبح جنديًّا. ثم جلست فوق ركام بيتنا، وحيدًا، أرى حياتي كلها أمامي، كما كانت بالأمس، كمن لم يغادر قريته قطّ، ولم يعش سوى لحظات من عمره...

غربت الشمس وأنا ما زلت جالسًا على الركام. نظرت إلى السماء التي بدت تتزين بالنجوم، ظهر وجه أمي بين النجوم، كانت تبتسم لي، ثم ظهر وجه أبي، وجدي وعمي... ابتسمت لهم، وأشرت بيدي إليهم ألوح في الهواء، سألني صديقي: لمن ألوح؟ فقلت له:

- للنجوم...

جلس معي يلوح هو أيضًا، نضحك، ونشير إلى كل نجمة، تلك كانت هناك أيام طفولتنا، شهدت على أحلامنا، وتلك أيضًا، وتلك أيضًا... ونحن نشير إلى النجوم ونضحك دون توقف، وامتزجت ضحكتنا بالحنين وبعض من الحزن على فراق أحبتنا.

أسدل الليل ستاره، بدت القرية كأنها شبح أخفاه ضوء النهار، وقد ظهر في جنح الليل. قمت من مكاني، ألملم نفسي، وأجر قدميَّ، ثم ودعت قريتي، وذكرياتي، وكل ما مضى من عمري، وتلك الملحمة التي عشتها. سرت مع صديقي نحو السيارة للعودة إلى المدينة. وتذكرت كلمات ياقوت:

- أنت موطني يا سليمان، حيث أحبابنا هناك الوطن، أنت موطني والأرض جزء منك...

صحت بأعلى صوتي، أكرر كلمات ياقوت، ورددت الجبال صدى صوتي. انتهت الملحمة، ولكنها ما زالت حية بين ضلوعي.

٢٠٢٣/١/٢٥